على
حافة الكون

❋ الكتاب: علىٰ حافة الكون (رواية)
❋ الكاتب: أحمد عبد المعز فرغلي
❋ مراجعة لغوية: قسم التحرير والمراجعة بدار المنتدىٰ
❋ تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدىٰ
❋ إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدىٰ
❋ رقم الإيداع: **17256/ 2022**
❋ الترقيم الدولي: **978-977-86240-7-6**

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: **daralmuntadaa@gmail.com**
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

(رواية)

على حافة الكون

للكاتب

أحمد عبد المعز فرغلي

أن تأتي متأخرًا خيرٌ من ألا تأتي أبدًا.

حكمةٌ أعجبتني

❊ ❊ ❊

إهداء

إلىٰ أختي العزيزة (مريم أمجد) دعوتِ الله كثيرًا أن تخرج هذه الرواية إلىٰ النور، وتمنيتِ أن تسمعي حفيف صفحاتها، ولكن حملك الموت قبل ذلك، وصعدت الملائكة بروحك الطيبة إلىٰ السماء.

إليكِ أنتِ أهدي كل حرف من أولىٰ رواياتي.

أحمد عبد المعز

***

-١-

لا أحد ينجو من سهام القدر

قرابة العاشرة مساءً، وعلى إحدى الطرق كانت السحب تغطي القمر منذرةً بهطولِ الأمطار، كان الصقيع قد اشتدَّ تحمله رياح أصابها القَرُّ، وعلى جانبي الطريق تتلوى الأزهار النابتة في ضياع الحقول القارسة، فائحًا منها هواءٌ عبق، وتتمايل الأشجار -البارزة في تلك الحقول- هامسةً بحفيف خافت، وتنتفض من هبات الريح العابرة.

وإلى يسار الطريق ينبسط حقلٌ بلا حدود، وفي أطرافه البعيدة تناثرت أضواء كابية، منبعثة من بيوت ريفية واطئة، وعلى اليمين امتد حقل أخضر حذاءَ الطريق لا يحده البصر، يتراءى لك بأن آخره ملتصق بالسماء، وعلى قارعة الطريق كان الناس يركضون نحو السيارة المنكوبة، آملين في أن يجدوا مَنْ ينقذونه، كانت الطريق تغص بالناس عندما هرعت قافلات الإسعاف نحو الحادث بأصواتها المعتادة، تتبعها سيارات الشرطة بأبواقها المعهودة، فتوقفت قوافل النجدة على مقربة من الحادث، يهرع كل سائق إلى سيارته فاتحًا بطنها، لينسدل منها رجلان يحملان أدوات النجدة الأزمة.

تحلق الناس حول السيارة المنكوبة، وقد أخرجوا منها مَنْ فيها؛ ثلاثة أشخاص هم: رجل وامرأة وطفلة لم تتجاوز الثالثة من العمر، يفترشون الطريق بلا حراك ما عدا الصغيرة، بعد أنْ أخرجَهم مَنْ حولَهم.

الجميع يرمقون المشهد في وجوم، مكفهري الأوجه، تنبث شفاهم بتمتمات خافضة: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، والبعض: "إنا لله وإنا إليه راجعون".. وآخرون: "البقاء لله".

الاثنان فارقوا الحياة، أما الطفلةُ.. فلم تُصَب بأي أذى.

كلمات أفردها أحد المسعفين، وهو رجل ثلاثيني ذو وجه عبوس قاطب، يعلو فمه الشاحب شارب أسود، وكأن الموت تجسد في وجهه، إلى الشرطي يحيى، ليجيبه الأخير وهو ينظر إلى السيارة المُهشمة بالكامل و المُضرجة بدماء ضحاياها، وقد تباين على وجهه علامات الذهول وعدم التصديق لمصير الطفلة:

ولكن كيف؟!

ليجيب المسعف ذو الجسد النحيل تمامًا كجثة، لم يتعرف إليها أحد، فطال بها الزمن في المشرحة:

من الأرجح أن الطفلة قفزت من السيارة قبل الحادث بثوانٍ، غير ذلك تكون نجاة الطفلة معجزة من السماء.

لم يكترث يحيى لرأي المسعف مرددًا في ذاته: "كيف تقفز طفلة صغيرة من السيارة قبل الحادث؟!"، "هل للأم دور في ذلك؟"، وأَذِن له بالانصراف ليبتعد المسعف بوجهه العابس، وجسده النحيل، يلتفت إلى أقرانه ليساعدهم.. نظر يحيى إلى الجمع صائحًا:

من منكم شاهد الحادث من البداية؟!

سادت جلبة بين الجمع وظلوا يتمتمون بكلمات غيرِ مفهومة البتة، قطع جلبتهم تلك عجوز يزحف نحو السبعين من العمر أكلت منه الدنيا وشربت، يرتدي جلبابًا، ويضع فوق رأسه عمامة ريفية بيضاء:

أنا.

رمى يحيى ما تبقى من لفافة تبغه، وأفرغ ما في جعبته من دخان، وتلفع بمعطفه الثقيل طلبًا للدفء.. وتوجه للعجوز:

أخبرني ما حدث؟

ليجيب العجوز في هوادة:

لم أشاهد الحادث لحظة وقوعه، لكني كنت أول الحاضرين إلى هنا.

فرك العجوز يديه من البرد.. وأردف:

أتينا مهرولين إلى هنا حالمين أنْ ننقذَ أحدًا، وعندما أدركنا السيارة وجدنا الرجل وزوجته مضرجين بالدماء، كانت الزوجة تضم الطفلة بين ذراعيها كأنها تحميها من أي خطر يحف بها.

نظر يحيى إلى المسعف:

أرأيت؟ استنتاجك خطأ، الطفلة لم تقفز من السيارة.

ليجيبه المسعف في ثقة:

ولكني أخبرتك أنها المعجزة.

طلب يحيى من العجوز أن يكمل.. ليتابع العجوز:

أخرجناهم جميعًا من السيارة، وقد غطّت دماؤهم المقاعد والنوافذ، ولا تزال الأم تضم طفلتها حتى تيقنت أنها بخير ولم تصَب بأي أذى ففتحت ذراعيها وتركتها.

نفخ العجوز في يده مستدفئًا.. وأردف:

ظلت الأم تحدق في طفلتها ببلاهة لمدة نصف دقيقة، ثم ازداد شحوبها وأشاحت بوجهها عنها، ونظرت إلى الأعلى كأنها ترى شيئًا لا نراه، وأفتر ثغرها عن ابتسامة باردة ثم أغلقت عينيها إلى الأبد.

بدا يحيى مطرقًا بحديث العجوز، وردد في نفسه: "ترى لماذا نظرت إلى أعلى؟ ماذا شاهدت؟ أهم حقًّا أتوا ليقتادوا روحها إلى هناك؟ إلى ذلك المجهول.. هناك حيث يمكث الأحبة مصطفين عند هذا الأفق البعيد، منهم من ينتظر إلقاء، ومنهم من يرجو العودة، ومنهم من يجهش منتحبًا من مصيره المجهول، أهم حقًّا أتوا ليقتادوا روحها إلى برزخ الرحمن؟". وتابع في نفسه: "ترى ماذا كانت تريد؟ وماذا تمنت قبل سكونها الأبدي؟ ولماذا ابتسمت؟ هل ابتسمت للحاضرين أمْ ابتسمت لأنها لم تتوقع تلك النهاية السريعة؟ فنحن مملين منذ الولادة إلى أن تأتي تلك اللحظة التي يتقاطر فيها أولئك المجهولون من السماء ليخبرونا بأنَّ الوقت قد حان لنبرحَ الدنيا، ولبدء مجهولنا الجديد.. عندها فقط نندم على ما حييناه.. وندرك أننا وصلنا إلى وجهتنا الأخيرة، مفارقين الدنيا سريعًا، تاركين حطام الزمن وراء ظهورنا، متيقنين أن نشر القيم والمثل العليا كان أولى وأهم، وأنْ نهدي مَن نُحب زهرةً وهم أحياء كان خيرًا من أنْ يضعوا على قبورنا باقةً من الزهور".

وفي أثناء خيالاته تلك إذ يرتفع صوت جهازه اللاسلكي يأمره بأن يجيب بسرعة:

ماذا هناك؟

قالها أحد الأشخاص من الجانب الآخر بصوت امتزج بالتشويش الاستاتيكي للجهاز.. ليجيب يحيى:

حادث في المكان نفسه.

يرتفع صوت التشويش الاستاتيكي للجهاز معلنًا انقطاع الاتصال، ولكن سرعان ما ارتفع الصوت مرة أخرى:

كم عدد المصابين هذه المرة؟

نظر يحيى إلى مساعده وهو شرطي في العقد الثالث من عمره، فأيقن المساعد بأن رئيسه يريد أسماء مَن كانوا في الحادث، فأسرع المساعد وناوله ورقة دوَّن عليها أسماء الضحايا والمصابين.. يحيى:

هذه المرة ليسوا مصابين بل موتى.

موتى! هذه الحادثة هي الخامسة في هذا المكان، الحوادث الأربعة السابقة لم يكن بها ضحايا بل كانوا بضعة مصابين، أخبرني.. كم عددهم؟

اثنان؛ نوح عبد الرحمن حسن، موظف في مصلحة الجمارك، وزوجته ديار أحمد بخيت، ربة منزل، وطفلة في الثالثة لم تصَب بأي أذى.. من الأرجح أنها ابنتهم.

كيف؟

إنها المعجزة كما أخبرني المسعف.

وكيف هي الآن؟

تغط في نوم عميق.. ولكنها بخير.

أنهى يحيى الاتصال سريعًا، وتوجه بالحديث إلى معاون النيابة فريد صالح، وهو شاب في العقد الرابع من عمره، بهي الثياب، بهي الكلمات، بهي الحضور، متوسط القامة، يميل إلى النحافة، توحي سحنته بأنه أحد أبناء الطبقات الأَرِسْتُقْرَاطِيَّة العاليةِ.

هذه المرة نجمَ عن الحادث ضحايا وليس مصابين كما في المرات السابقة.

كلمات بدأ بها فريد الحديث في كياسة.. ليجيب يحيى:

أتعجب من ذلك.

قال فريد:

ألم تقتنع بعد بأن تلك الحوادث تحدث بسبب ما؟ ولا تفحمني بتحليلاتك العبقرية التي تثير الشفقة بأن إطارات السيارات رديئة الصنع، أو أنَّ المصانع التي تنتج المكابح لا تخضع للإشراف بشكل دوري.

يكتفي يحيى بالصمت وعدم الإجابة؛ فهو كثيرًا ما ادعى بأن تلك الحوادث تحدث لأسباب طبيعية كالسرعة الزائدة، أو انفجار الإطارات، ولكن الحوادث السابقة لم ينتج عنها أي موتى، إلا أن ما حدث اليوم أمر يدعو إلى الريبة والقلق.. وأكمل المعاون:

هذه الحادثة هي الخامسة من نوعها التي تحدث فى ذات المكان، والمؤشرات الأولية توضِّح بأن السبب مُشابه لأسباب الحوادث الأربعة السابقة؛ سرعة زائدة نتيجة دعس دواسة البنزين، يليها عدم القدرة على التحكم في السيارة، الأمر الذي يدعو إلى الاستخدام المُفاجئ للمكابح لتكون النتيجة انقلاب السيارة.

تابع وهو يتفحص دواسة البنزين:

هذه هي الأسباب الطبيعية للحوادث الخمس تلك، ولكن يوجد شيء ما خفي، شيء يدفع السائق إلى القيام بكلِّ هذه الخطوات بنوع من الترتيب، شيء لا إرادي يدفعه للقيام بكلِّ الخطوات السابقة دون أن يحيد عن خطوة واحدة، شيء يقسره لفعل ذلك، هل يرى السائق شيئًا ما في الظلام؟ أشباح أو غرباء أو ما شابه.. لا أعلم.

طبق يحيى شفتيه، ورفع حاجبيه مُحاولًا أن يجد ما يقوله للمعاون، لطالما دافع عن فكرة عدم وجود غرباء أو أشباح في المرات السابقة، مُعللًا بأن تلك الحوادث تحدث لأسباب طبيعية.. ولكن تلك المرة بدأ يقتنع بكلام المعاون فريد.

فرغ المسعفون من حمل الضحايا إلى سيارات الإسعاف التي تأهبت للرحيل بمَن في داخلها، وتلحق الجميع حول السيارة المنكوبة، وبدأوا يتجادلون حول مصير الطفلة، وعن أسباب تلك الحوادث الخمس، أحدهم يقسم بأنه في أثناء عودته ليلًا على هذا الطريق رأى ملكًا من الجن يحترق، وقُيّدتْ أطرافُه بسلاسل من نار، وحولَه يصرخ ويعول عشرات من الجن، يقسمون بأنهم سيثأرون له، ويَعِدون أهل تلك القرية بالهلاك، ثم أشار بيده إلى القرية الضاربة على يسار الطريق الساكنة فى أطرافه البعيدة، ويرد آخر بأن أهل تلك القرية هم مَن حرقوا هذا الملك، وأن تلك الحوادث الخمس ما هي إلا انتقامًا من عشيرته، ويصيح ثالث بأن هذا كله هراء لا يمت للحقيقة بصلة، وأن السبب الحقيقي لكل هذا هو أن هذا الطريق بُني على قبر

ولي من أولياء الله الصالحين، وأن الحل الوحيد للقضاء على تلك الحوادث هو إزالة الطريق وبناء ضريح له.. قطع تعجب يحيى وحيرة فريد وجدل الجمع صوت جلبة قادمة من إحدى سيارات الإسعاف، ففزع الجميع مهرولين إلى هناك.. يسأل يحيى المسعف عن سبب تلك الجلبة، ليجيب المسعف:

نوح حي!

****

وفي المستشفى، أتت سيارات الإسعاف -بأبواقها المعتادة- إلى مقصدها سريعًا، واحدة تحمل نوح المصارع لبقائه، والأخرى تحمل جثمان زوجته، التي بدت السماء كابية لها، حزينة على فراقها، تنطفئ قناديلها واحدة تلو الأخرى، وبدت الرياح العابرة تحمل في طياتها أنينًا خافتًا؛ نحيبًا لها.

وببطء ملحوظ، عرجت سيارة الزوجة إلى المشرحة مفترقةً عن السيارة الأخرى الحاملة لزوجها في مشهد بلغ من الحزن أشده، وكأن السيارتين تودعان بعضهما بعضًا عالمتين بحال صاحبيهما.

وفي قسم الطوارئ الواقع في نهاية الممر، استقرت سيارة الزوج، ووقف مستقبلوها -من طاقم المستشفى- متأهبين له، آملين في إنقاذه.. وما إن فرغ هؤلاء من إبدال ملابسه بغيرها حتى صاح أحدهم:

إلى العناية المُركزة سريعًا.

كان وجه والدة نوح شاحبًا كابيًا حينما هرولت إلى المستشفى، وعلى آثارها أتت مجموعة من الأقارب والعائلة، أتوا بأعين حمراء مضرجة بالدموع، لا تعلم ماذا تفعل؟ أتنندب طامتها الكبري لوفاة زوجة ابنها الوحيد أم تشكر الله لبقائه حيًّا حتى الآن؟

لاحظ أحد الأقارب أن عائلة الزوجة لم تأتِ حتى الآن، وراح يسأل السيدة عن ذلك، فأجابته وقد احمر أنفها من كثرة البكاء:

لا أعلم.

منَ يعلم إذن؟

حاولت محو الدموع وقالت بصوت اختلط به أنين بكائها:

لا نعلم شيئًا عن عائلتها، كل ما نعرفه عنها أن والديها مُتوفيان.

وإجراءات الدفن؟!

أتموها أنتم، فهي فرد من العائلة.

أشاح الرجل بوجهه عنها، وعاد إلى جمع الأقارب يخبرهم بأن يسرعوا في مراسم الدفن، وطقوس العزاء.

وقرب نافذة صغيرة مُطلة على غرفة العناية المركزة، راحت الأم ترمق ابنها وهو ساكن في فراشه يتلحق حوله عدد ليس بقليل من الأجهزة الطبية، وراح طبيبان يتهامسان بجواره عما ستصل إليه حالة ابنها بعد ساعات قليلة.. كانت هائمة، شاردة، تطلب من ربها أن ينجيه وألا يتركه يفارق الدنيا، حاولت محو الدموع المتكدسة في مقلتيها، لتظهر عيناها مضرجتين بالدماء.. تهدأ قليلًا، ليعود أنينها في الارتفاع كلما نظرت عبر النافذة لترى ما وقع بابنها، يتراءى لها ارتفاع جفونه، ولكنها في الحقيقة لا تزال مطبقتين.

وفي أثناء خيالاتها تلك، تذكرت والده وهو ماكث في فراشه بعد أن أنهكه المرض في شبابه، يوصيها بنوح.. نوح الذي لم يبارح العاشرة حتى توفي والده.

تلاطمت دموعها كما تتلاطم السحب الملبدة في السماء، تلاطمت دموع الماضي المرير حيث زوجها المتوفى في شبابه، وحيث شبابها الفاني في تربية ابنها، وحيث الأتراح القاسية، مع دموع الحاضر المشئوم. وهي لفي ذلك يخرج أحد الأطباء من الغرفة، فيتهافت عليه الجميع، تمتم الطبيب بعد أن أنزل كمامته:

غيبوبة.

****

-٢-

الفضول قتل القط

في غرفة تكاد تتلاصق أطرافها من الضيق وقلة الاتساع، وعبر نافذة خشبية أنهكها التآكل يمر تيار من الهواء البارد يجعل الستائر الممزقة تتموج إلى الداخل.. كانت الغرفة قابعة في الدور الأول من إحْدى البنايات المتهالكة القديمة، وعلى منضدة تنتصب بأعجوبة من شدة ما حل بسواعدها من بلاء، تثوى مجموعة من الكتب والقوارير الممتلئة بسوائل تباينت ألوانها عما حولها.

وعلى الجانب المقابل للمنضدة -من الغرفة- يوجد سرير خشبي خائر بغطاء بالٍ ممزق يتمطى صاحبه بعد أن تلاعب تيار الهواء بأطرافه الدافئة، وعلى جدارن الغرفة تسمرت مجموعة من الخرائط الملونة تبين حركات الأجرام والنجوم.

ترتفع شدة تيار الهواء لتندو عن القوارير أصوات خفيضة ناتجة عن التصادم، ويجعل الكتب تحفحف في أماكنها، لينهض يونس عجولًا يوصد النافذة المفتوحة، وأثناء عودته لفراشه يرتفع طرقًا عنيفًا على الباب، يكاد يقتلع الباب المصفد من الداخل.. تسمر في مكانه، وجحظت عيناه الواسعتان من الخوف.

مَن؟

تلفظ بها بصعوبة وقد أربد وجهه من شدة ما حل به من خوف، ليجيب مَن بالجانب الآخر من الباب:

افتح أيها الأبله، وإلا اقتلعنا الباب وحطمناه فوق رأسك.

يقترب يونس من الباب بخطوات زاحفة، وأرجل متسكعة، وتعالت على الباب قرعتان آخريان، وقبل أن يفتح كرر:

مَن؟

ليرتفع صوت مَن بالخارج وقد بدا أنه أكثر من شخص:

افتح أيها الماكر.. لن تنجو بفعلتك.. ستبيت دهورًا في السجن، لن ترى عبوس الشمس ثانية.

ويعاود الصوت في الظهور من خلف الباب:

حتى لو جئت بحفنة من المحامين الكبار فلن تكف عن عد السنين في السجن.. آه نسيت، لن تنجو بفعلتك أيها المجرم.

ليفتح يونس الباب وقد تيقن بمن خلفه، فقال:

أخبرتكم كثيرًا بكرهي لهذا الهراء، وأنه من الضروري أن يمنعكم كِبر سنكم عن هذا، وأخبرتكم أيضًا بأني لا أتجاسر على تحمل هذه السخافات.

سمح لهم بالدخول مرددًا:

في إحدى المرات سألقي حتفي من مزاحكم السخيف هذا.

لينفرج فكا الضيفين أكثر فأكثر من شدة الضحك وما حل بصديقهم من ضيق؛ فلم يكن الضيفين سوى صديقيه؛ نوح وعواد وكانوا يحبون أن يناكدوه.. يونس شاب في الثلاثينيات من عمره، متوسط القامة، ضيق المنكبين، يمتاز وجهه بلون خمري مائل للاصفرار، تعلو جبهته عوينات سميكة.. تابع وهو يحك نقرته:

أوغاد.

ليجيب نوح وقد ارتسمت على وجهه ضحكة ماكرة:

مرحبًا بـ ماري كوري في نسخته المصرية.

ليرد عواد وهو يتفحص إحدى القوارير التي تعلو المنضدة:

ولكن ماري كوري امرأة، ليست رجلًا.

يكمل نوح:

أعي ذلك تمامًا، ولكن انظر إلى لونه الخمري وإلى شعره الطويل، وإلى قبوه ذلك، وإلى خرائط جدرانه، إنه محاط بضروب من الأدوات الغامضة.

ولكنك نسيت النظر إلى لحيته.

ليقطع يونس حديثهما، فأمره عواد بالجلوس على كرسي خشبي متهالك.. قال نوح:

أتعلم يا يونس أني متعجب من هذا؟

قال يونس:

مما تتعجب؟

أجاب نوح:

من حياتك، وغرفتك، أتعجب من مستقبلك المبهم.

وحينما هَم يونس بالجلوس على كرسيه الخشبي، صاح به نوح الجالس على طرف السرير الممزقة ملاءاته:

قبل أن تجلس أين الشاي؟!

شاي! أي شاي؟ الجوع يعتصر معدتي وأنت تطلب منه صنع الشاي!

قالها عواد وهو ينهض من مجلسه، ليتجه صوب المنضدة، ويمسك بإحدى القوارير الحمراء، ويرفعها صوب فمه ويضيف:

بإمكاني أن أشرب هذا إلى أن تنتهي من إعداد الطعام.

ينهض يونس مفزوعًا ليمسك بالقاروة الحمراء:

احترس أيها الأبله وإلا قُتلت مسمومًا.

قال نوح مُبتسمًا:

دعه يا يونس، لعل هذا السائل باستطاعته أن يغير من وجهه الباهت ليصبح أكثر إشراقًا مثلنا.

ليرد يونس وهو يلتفت لـ عواد:

من الممكن أن يفتك بك ذلك الفضول المندفع من ثناياك كما فتك بالقط.

قال عواد:

أي فضول؟!

رد نوح:

مِن الأجدر أن تسأل عن القط وليس الفضول.

يرتفع صوت يونس وقد أرتمت على شفتاه أبتسامة ساخرة من عجزهما أمام مصطلحاته وعباراته، فهو يتعجب كثيرًا من بلاهاتهما الشديدة، فهما لا يهتمان إلا بالمزاح والسخرية، لذا وجب عليه الشرح والتفسير:

قبل أن أبدأ يجب أن ترميا كل ما تعلمتاه في مدارسكم النظامية من هذه النافذة، وأن تعيا بأنني لن أكرر كلماتي ولو لمرة واحدة، وأن تصغيا السمع لي، فكثيرًا ما قالوا قديمًا من كان له أذنان للسمع فليسمع.

ليقطعه نوح محاولًا تقليد نبرته ونظراته:

ولا تمزحون من حديثي.. ولا تقاطعوني..

وأضاف:

من الأفضل أن تبتاع مسدسًا وطلقتين وأن تصوب إحداهم إلى نقرتي، والأخرى إلى قلب عواد؛ فذلك أفضل حتى تستريح.

رد عواد:

أقسم لك بأن كلينا حفظ هذه التشريعات.

ومع تلك الكلمات بدأ يونس في الشرح والتوضيح.

***

قال يونس:

إرفين شرودنجر عالم فيزيائي من النمسا، نال جائزة نوبل في الفيزياء سنة ١٩٩٣ بسبب إسهاماته في توضيح وتفسير ميكانيكا الكم. واستطرد:

قام إرفين شرودنجر بعمل تجربة ذهنية لشرح وتفسير إحدى تطبيقات نظرية ميكانيكا الكم...

قال نوح مُقاطعًا:

تجربة! ذهنية! هناك تناقض يا ذو العوينات، طالما أخبرنا معلم العلوم بأن التجربة تكون عملية وليست ذهنية لأنها تجرى في المعمل، ندرس مراحلها، ونشاهد تفاعلاتها، وننتظر نتائجها، وندوِّن تفسيراتها.

رد يونس:

أخبرتك بـ ألا تقطع حديثي، ولكن حسنًا سأوضح لك الأمر.. أعلم جيدًا بأن التجربة تكون حقيقة تشاهد وتعي كل مراحلها كمشاهدة الشمس عند الغروب وتوديعها عند المغيب، ولكن تجربة العالم شرودنجر لم تكن تجربة معملية، أي لم يقم بإجرائها في معمل بل كانت تجربة قائمة على التخيل وقائمة على شيء آخر وهو الافتراض.

قضم نوح شفتيه وحرك رأسه إلى أعلى وأسفل موحيًا بالفهم.. وتابع يونس:

كانت التجربة كالآتي؛ تخيل العالم شرودنجر صندوقًا خشبيًا وضع بداخله قطة حية، ومادة كمية احتمال تحللها بعد ساعة هو ٥٠ %، ووضع أيضًا داخل الصندوق جهازًا لقياس شدة الإشعاع يسمى عداد غايغر، ومادة سامة بعض الكتب تذكر أنها حمض الهيدروسيانيك، ووضع مع كل هذا شاكوش.. وضع شرودنجر كل هذه الأشياء داخل الصندوق وجعلها تعمل بطريقة معينة.. وهي كالآتي؛ عندما تتحل المادة الكمية يتحرك مؤشر عداد غايغر الذي بدوره يجعل الشاكوش يسقط على قارورة المادة السامة فيملأ السم الصندوق ويستنشقه القط فيموت. هذا هو الاحتمال الأول، أما الاحتمال الثاني... ليقطعه عواد:

الاحتمال الثاني هو أن المادة الكمية لا تتحلل؛ فبالتالي لا يتحرك مؤشر العداد فلن يسقط الشاكوش على قارورة السم، فلا ينتشر حمض الهيدروسيانيك داخل الصندوق فيظل القط حيًا داخل الصندوق.

قال يونس:

بالضبط.. أزحت عني الكثير، هذان هما الاحتمالان ولا ثالث لهما. وأضاف:

وبما أن المادة الموضوعة داخل الصندوق هي مادة كمية إذًا تخضع لقوانين ميكانيكا الكم.

واتجه عواد بالسؤال:

ميكانيكا الكم؟!

ليجيبه:

ميكانيكا الكم هي مجموعة من النظريات الفيزيائية التي ظهرت في القرن العشرين وذلك لتفسير الظواهر التي تحدث على مستوى الذرة والجسيمات دون الذرية.

سأل عواد:

وما هي الأسباب التي أدت لظهورها؟

رد يونس:

قبل القرن العشرين، كانت معادلات الحركة لنيوتن هي السائدة؛ فهي تعطينا التفسير القاطع والكافي لأي حركة في الكون، سواء أكانت هذه الحركة لجسم صغير أو كبير، لذلك سميت هذه المعادلات آنذاك بقوانين الكون، ولكن عندما حاول العلماء تطبيق هذه المعادلات -معادلات الحركة الثلاث لنيوتن- على المستوى الكمي أي على مستوى الذرات والجزيئات والإلكترونات، لاحظ العلماء أن هذه الأجسام المتناهية في الصغر تتحرك حركات اعتباطية عشوائية لا تعرف معنى النظام، ولا تخضع هذه الأجسام في حركتها إلى قوانين الحركة لنيوتن، لذا اقترح العالم ماكس بلانك وجود قوانين مختلفة في هذا الكون تفسر حركة هذه الأجسام الكمية.. هذا الأمر مهد برمته إلى ظهور علم جديد ذي أهمية كبري، وهو علم ميكانيكا الكم، ومن ثم ظهور الفيزياء الحديثة. صمت هُنيهة ثم أضاف:

ولكثرة الأبحاث التي قدمت في هذا المجال، منحت نحو ١٧ جائزة نوبل لأبحاث احتوت عناوينها على كلمة كم.

قطب كل من نوح وعواد حاجبيه من الدهشة، فهما يعلمان أن في جعبة يونس الكثير، لذلك يداومان على زيارته، ويسترقان السمع لحديثه، ويكَبَّان على الجلوس معه، والتعلم منه.. قطع يونس دهشتهما قائلًا:

نعود إلى القط، ذكرنا أن الأجسام الكمية -أي الموجودة في المستوي الكمي- تأخذ أشكالًا مختلفة بصورة اعتباطية، مثال على ذلك الفوتون وهو عبارة عن حزمة صغيرة جدًا من الضوء، لاحظ العلماء أن هذه الفوتونات عند النظر إليها ورصدها تتصرف كجسيمات أو كأمواج مع العلم أن الموجة والجسيم غير مترادفين تمامًا.

قال عواد ساخرًا:

أخي يونس سبق وأن أخبرتني أمي بأني أعاني من صعوبة الفهم.

رد يونس:

حقًّا؟! ألم تخبرك أيضًا بأنها أفسدتك بالدلال في صغرك.

أخذ يونس نفسًا عميقًا ليملأ الهواء ثنايا رئتيه، وأخرج زفيره قائلًا:

تخيل نفسك يا عواد أنك رجل.. معذرة يا صديقي، أعلم بالتأكيد أنك رجل ولكني أقول هذا لتوضيح المثال لا أكثر.. تخيل نفسك رجلًا تتصرف كالرجال، وترتدي ملابسهم، ولك كل مزاياهم وخصائصهم وذلك عندما ينظر إليك نوح، ولكن حينما يصوب نوح وجهه إلى شيء آخر ويعود ليلتفت إليك يجدك تحولت إلى امرأة لك كل خصائص النساء.

ازدادت دهشة صديقيه، وارتفعت أسقف أفواههم لأعلى من التعجب وعدم التصديق ليقطع يونس دهشتهم مجددًا:

وهذا هو مبدأ عدم اليقين لـ هايزنبرج، وله عدة مسميات في الكثير من الكتب مثل مبدأ عدم التحديد، مبدأ عدم التأكد، مبدأ الشك، مبدأ الريبة، مبدأ الارتياب، مبدأ اللا دقة... إلخ.

وتابع:

وينص هذا المبدأ على أنه بمجرد ملاحظة المادة الكمية، فنحن نؤثر في سلوكها وبالتالي فنحن لا يمكن أن نتأكد طبيعة الشيء الكمي ولا صفاته المميزة مثل السرعة والموضع.

قال نوح:

وما هو تفسيرك لهذه الظاهرة؟

نهض يونس من مكانه وبدأ يزرع الغرفة جيئة وذهابًا مؤشرًا بيده، وذلك لكسر أي حالة ملل تأمل في الظهور، قائلًا وهو يلوح بيديه:

ظاهرة اختلاف الأشكال والصور التي يظهر بها الجسم المتحرك في المستوى الكمي وذلك عند إعادة النظر إليه لها تفسيران علميان وليس تفسيرًا واحدًا، وحتي لا أطيل على مسامعكم سأكتفي اليوم بالتفسير الأول وهو تفسير كوبنهاغن، هذا التفسير وضعه العالم نيلز بور.. وينص تفسير كوبنهاغن على أن الجسيمات والمواد الكمية لا توجد في حالة واحدة معينة ولكنها توجد في جميع الحالات الممكنة لها في ذات الوقت، إجمالي مجموع الحالات الممكنة للشيء الكمي يسمي بدالة الموجة، وحالة الشيء الكمي والذي يوجد في كل الحالات الممكنة له تسمي بالوضع الفائق.. وتابع بور في تفسيره، أننا حين نقوم بملاحظة أو رصد أي شيء كمي فنحن نؤثر في سلوكه، أي أن الملاحظة أو الرصد تقوم بكسر حالة الوضع الفائق للشيء الكمي، وتجبره على اختيار حالة واحدة فقط من دالة الموجة الخاصة به.. مثال للتوضيح، الفوتونات طبقًا لتفسير بور فأنها توجد في كل الحالات الممكنة لها، وهي إما أن تكون موجات وإما جسيمات وبالتالي تكون دالة الموجة للفوتونات هي موجات وجسيمات، وعند رصد الفوتونات فنحن نقوم بتكسير دالة الموجة الخاصة بها وإجبارها على اختيار حالة واحدة فقط للظهور بها، وهي إما كموجة وإما كجسيم. وقبل أن يبدأ نوح بالحديث استوقفه يونس قائلًا:

دعونا ننتهي من هذا الحديث.

ليعود يونس للجلوس على كرسيه المتهالك الذي ارتفع أنين أطرافه الخائرة.. وتابع:

من الأفضل أن نعود إلى القط..

قال عواد:

أقسم لك بنسياني ذلك الملعون، ونسيان مصيره المجهول.

قال يونس:

بما أن المادة الموضوعة داخل الصندوق هي مادة كمية، إذًا تنطبق عليها قوانين ميكانيكا الكم، إذًا لو فتحنا الصندوق بعد مرور ساعة من بداية التجربة ووجدنا أن القط مات ينبغي لنا أنْ نعرف أنَّ القط قتل بسب...

يقطعه عواد:

السم.

رد يونس:

غبي.. ومتسرع!

تابع يونس:

الفضول هو السبب.

ينهض يونس من مكانه مرة أخرى، وأضاف وهو ينظر إلى عواد ونوح:

ما دام الصندوق مغلقًا، فمن وجهة نظر ميكانيكا الكم تكون دالة الموجة للمادة الكمية الموجودة داخل الصندوق وذلك بعد ساعة من بداية التجربة هي تحللت ولم تتحلل في ذات الوقت وحين يفتح الصندوق -أي حين الرصد- فإننا نقوم بتكسير دالة الموجة وإجبار المادة الكمية على الظهور بحالة واحدة فقط، فإذا تحللت المادة الكمية عند الرصد يتحرك مؤشر عداد غايغر ويسقط الشاكوش على السم ويموت القط، أي أن الفضول هو سبب الوفاة من الأساس وليس السم، فما دام الصندوق مغلقًا، فإن المادة الكمية تكون تحللت ولم تتحلل في ذات الوقت، أي أن القط يكون ميتًا وحيًّا في ذات الوقت.

قال نوح فاغرًا فاه:

في النهاية، أخبرنا عن مصيره الحقيقي.

قال يونس:
صدقني لا أعلم.. كل من بحثوا في مسألته حتى الآن لم يعلموا مصيره، حتى إن العالم ستيفن هوكينج، وهو الذي شغل منصب أستاذ الرياضيات بجامعة كامبيردج من كثرة ما سأل عن قطة شرودنجر قال جملته الشهيرة "مَن أراد معرفة مصير قطة شرودنجر سأرفع عليه بندقيتي".
نظر يونس إلى عيونهما التي ازدادت جحوظًا من الدهشة، وإلى أفواههم التي ارتفعت من التعجب.. وقال بنبرة تشوبها سخرية:
سحقًا لي، أضعت وقتي في الشرح لمعتوهين لا يفهمان شيئًا، جحوظ أعينكم يخبرني ذلك.
ليس بالضرورة أن توحي العيون الجاحظة بعدم الفهم والغباء، ولكن من الممكن أن توحي بالدهشة والتعجب.
تلفظ بها نوح وهو يتنهد في ارتياح، ثم تمطى ونهض من مجلسه، نظر إلى عواد ليخبره بأن موعد الرحيل قد آن، ثم أدار وجهه شطر يونس قائلًا:
يتحتم عليَّ غدًا زيارة قبر والدي، ينبغي أن نتسكع معًا بعد أن أنتهي من ذلك، لن أقبل بحججك مرة أخرى.
قال عواد ليونس:
لماذا لا تخرج من هذه المقبرة؟ منذ أن عرفناك وأنت هنا، لم نرَك قط تخرج، لماذا تنزوي عن العالم؟!
قال يونس وهو ممسك ببعض القوارير وقد بدأ بمزج سائلهما:

ولماذا أخرج؟! وقد تفشى الانحطاط في الجميع كما تتفشى الأمراض والأوبئة، الأطفال، الشباب، النساء، الشيوخ.. الجميع لديهم درجة لا بأس بها من الانحلال والتدهور الخلقي والديني والتعليمي.. الجميع ظهروا حمقى.. القواعد اختفت، والقوانين تلاشت، والثوابت اندثرت، وبإمكان أي واحد منكم التأكد من ذلك عند أقرب إشارة مرور، تجد أن عددًا ليس بقليل من السيارات تجتاز الطريق دون أن يعير أي من سائقيها أدنى اهتمام لإشارة المرور التي توحي بالتوقف وعدم المرور.. وعندما تطوف ابتسامة على وجهك لرؤيتك شخص احترم القواعد وتوقف لأن الإشارة توحي بذلك، تسمع صوتًا يعلو بشدة قادمًا من نافذة إحدى السيارات التي قررت العبور وعدم التوقف "لن تنفعك القواعد أيها الأخرق"، فتغيب تلك الابتسامة التي غمرت وجهك ويُستبدل بها حزن شديد، يقطب حاجباك، ويكور أنفك، تعود ابتسامتك للظهور عندما ترى أحد رجال المرور الشرفاء الذي لم يستبدل بقلبه الرشاوى والإكراميات يوقف إحدى السيارات مجبرًا صاحبها على احترام الطريق ليشتد صوت صاحبها "هل تعلم مَن أنا أو مَن هو والدي؟! ستدفع ثمن هذا غاليًا".. لتغيب الابتسامة التي غمرت وجهك إلى الأبد.

تابع:

حاول يا نوح أن تستوقف أي طفل وتجاريه في الحديث لتري جحوظ عينيه، وحركات يديه، حاول أن تناكده لتجد سيلًا من الشتائم والبذاءات، ناهيك عن محاولاتهم المستمرة للتحرش بالفتيات، لقد حكى لي صديق يعمل مدرسًا بأنه في غضون أسبوع واحد حدثت ثلاث وقائع غير مألوفة من أطفال في هذه السن، حدث كل هذا في مدرسته، أحد أطفال الصف الرابع الابتدائي سرق مبلغ ثلاثمائة جنيه من حقيبة مدرسة العلوم أثناء شرحها الدرس، وآخر أخرج "موس" من فمه لمدرس الموسيقى، والثالث جاء والده إلى مدير المدرسة يشكو له أن ابنه ليلة البارحة أغلق إحدى الغرف عليه هو ووالدته، وتركهما وغادر المنزل، ليرد عليه مدير المدرسة بشعره الأشيب ورابطة عنقه الكبيرة خائفًا متسائلًا مستنكرًا: "فعل كل هذا مع والديه؟! إذًا ماذا يفعل معنا؟!".. وأنت يا عواد لا تتعجب من هذا، ألم تصادف مرة شخصين يتشاجران والجميع تلحقوا حولهما يرمقون الموقف في فرح وسخرية؟! لا أحد يتدخل لإدراك الموقف وفض الشجار، يصل العراك إلى الذروة، وتسيل من رؤوسهم الدماء، والجميع مكتوفو الأيدي غير عابئين بهم، يكتفون فقط بإبداء الإعجاب والتصفيق، ألم ترَ فتية يتحرشون بفتاة ولا أحد يتدخل للدفاع عنها؟! رجل يلكم زوجته.. ابن يسب والده.. ألم ترَ كل هذا؟!

تنهد وأردف:

لقد أصبح الشارع مكتظًا بسيول من الشتائم والكلمات البذيئة والأصوات المنبعثة من الأنوف، الجميع غارق في الحماقات، وبعد كل هذا ترى من يطل عليك ويمليك أنه بحلول عام كذا سنكون قوة كبيرة، سيتحسن الاقتصاد، ويرتفع مستوى المعيشة، أو تجد عبارات بعد أقل من عشر سنوات سنكون في صفاف الدول العظمى، وها أنا أؤكد لكم يا أصدقائي بأنه بعد أقل من عشر سنوات سيكون الانحطاط بلغ الذروة، ولن تكون هناك معيشة من الأساس.. وأضاف:

ولكني أعدكم بالخروج؟

متى؟

قال يونس:
حين يتوقف سيل الشتائم، ويجف ينبوع البذاءات، عندما تتوقف الإكراميات وتختفي الرشاوي، عندما يُحاسب المذنب وينصر المظلوم، أي عندما يعود نهر الحياة للنضوب.
اتجه نوح صوب الباب قائلًا:
إذًا لن نراك في الخارج أبدًا.
يرتفع صوت الباب معلنًا رحيلهما.. تنهد يونس في ارتياح قائلًا:
حمدًا لله نسيا الشاي.

-٣-
عاد إليه وعيه

جلســت الأم في صــالة الاســتراحة، وعلى جانبيها مكث الصــديقان؛ يونس وعواد، وعدد ليس بكثير من الأهل والجيران، وبَيِّن للجالســين أن حالة الأم تزداد سـوءًا، فأصـبحت أكثر ضـمورًا، وبان وجهها أكثر شـحوبًا، ما من أحد يبصـرها إلا وكانت محمرة العينين، لا تكف عن زرف الدموع.

وكصـمت القبور، كان الصـمت يسـيطر على المكان، يتخلله بعض النداءات تارة، والاسـتغاثات تارة أخرى، واكتفى الجمع بالوجوم وعدم التكلم والحديث.. فسيطر على المكان صمت جنائزي وادع، يتخلله رائحة الأدوية والمعقمات المندفعة من كل ركن من أركان المستشفى.

كان النهار قد تنفس حين هرعت الممرضات من أمامهم حادثين جلبة واضحة في مجلسهم:

- ماذا هناك؟!

ارتفع بها أحدهم سائلًا، لترد الممرضة وهي تعجل:

- لقد استفاق مريض غرفة العناية المركزة.

وتضيف أخرى وهي تحاول اللحاق بها:

- نوح عاد إلى وعيه.

ليهبوا جميعًا من أماكنهم مهرولين تتقدمهم السـيدة العجوز في عجالة لاهثة إلى غرفة العناية المركزة رقم ٥، غرفة ابنها نوح.

***

وفي الغرفة، تلحق الجمع حول نوح المضجع في سريره، يحاول أن يتخلص من أنبوب الأكسجين الملتف حول أنفه، لتمد الممرضة يدها لتساعده:

- حمدًا لله على سلامتك يا أخي.

لم يعيرها نوح انتباهًا، كأنه لم يسـمعها من الأسـاس، وظل يطيل النظر فيما حوله وكأنه يبحث عن ضالة ما، وتسأل بصعوبة:

- أين ديار؟

ترد الأم:

- حمدًا لله على سلامتك يا بني، مريم بخير لم يصِبها أي مكروه.

وكأنه لم يسمع تلك أيضًا.. وأضاف:

- أين ديار؟

تكفهر أوجه الجمع، وتتجه أبصـارهم إلى الأسـفل، غير قادرين على إخباره، تضع الأم يدها على فمها محاولة كتم نحيبها.. وأردفت وقد امتزج صوتها بالبكاء:

- د د د... ديار توفيت في الحادث.

يحدق نوح فيها ببلاهة شـديدة هنيهة، ثم امتقع لونه، وانفجر صـارخًا في البكاء.

****

-٤-
القرية

أوشك شفق المغيب على القدوم، وصارعت ضفائر الشمس المذهبة على البقاء وعدم الرحيل، إنها الخامسة مساءً، كان ثلاثتهم يجسون الطريق بامتداده على أحد جانبيه، حينما صاح يونس:

- ها أنا ملبي لندائكم، لا أتجاسر على غضب أي منكم.

يرد نوح مُبتسمًا:

- يا لمعدنك النفيس يا أخي! ولكن هل تعلم إلى إين نحن ذاهبون؟

يجيب يونس :

- نتسكع فقط لا غير، ربما نتناول بعضًا من المياه الغازية أيضًا.

عواد ساخرًا:

- لا.. إجابة خاطئة يا أبله.

يرد يونس في غضب:

- عواد.. هل نلت قسطًا من التربية قديمًا؟!

يبتسم عواد:

- أعتقد.. ربما القليل منها.

يونس:

- تقول أنك نلت، ومع ذلك لا تكف عن التلفظ بالألقاب والألفاظ البذيئة!

نوح مبتسمًا:

- وما رأيك أنت يا يونس؟ هل نال قسطًا من التربية أمْ كان يطفو فوق مستنقع من الفواحش؟ لا يكف عن قرع أكواب النبيذ.

- أعتقد أن التربية لم تمر على ديارهم من الأساس، أو ربما مرت دون أن تطرق الباب لأنهم يغطون في نوم سحيق.

ترتفع ضحكات صديقيه حتى كادا يسقطان من شدة الضحك.. يرد عواد:

- لم نضحك هكذا منذ مدة، أين كنت أيها الأبله؟!

قال نوح:

- قابع في معمله الذي غطي التراب جزءًا كبيرًا منه، أخبرنا لماذا لا تغادره.. يخيل لأي أحد أنك قابع في انتظار قدوم أحد ما.

يجيب يونس وقد أغبر وجهه:

- أنتظر قدوم أمي.

يرد نوح وهو يربت على كتفيه:

- ستعود.. إن شاء الله ستعود.

عواد:

- هل من الممكن أن تملينا كيف رحلت؟

يبدأ يونس الحديث وقد ضججت مقلتاه بالدموع:

- في مدينة ما، كنا نعيش أنا وأبي وأمي في منزل كبير، عشنا سعداء، إلى أن كثرة المناوشات بينهما، فقررا الانفصال، كنت في السادسة حينذاك، وفي منتصف الليل حملني أبي وركب بي القطار، جلس أبي بجانب النافذة وقد احمرت عيناه من الدموع، عندما نظرت إليه تيقنت في غير شك أن أمي رحلت إلى الأبد، وما إن نزلنا من القطار حتى بدأنا نجوس المدينة إلى أن وصلنا إلى غرفتي الحالية، وبمجرد دخولنا الغرفة، أولج أبي المفتاح في القفل، فسألته عن أمي، أخبرني أنها ستلحق بنا بعد بضعة أيام، مرت عشر سنوات ولم تأتِ أمي وكلما سألت أبي أخبرني بأنها يومًا ما ستأتي.

سألته:

- لماذا؟ بعد كل هذه السنوات! لماذا تعود؟

أخبرني بأن الأم تقتاد إلى أبنائها كما تقتاد حبات المطر إلى سطح الأرض.. إنها الغريزة التي أنبتها الله عز وجل في قلوبهن.

طلبت منه أن يسدي إلى عنوان منزلنا قبل رحيلنا، ولكنه توفي قبل أن يخبرني.. ظللت أبحث عنها زهاء عشر سنوات أخرى بعد رحليه، ولكني عدت خاوي الوفاض في كل مرة، تملكني اليأس وقررت أن أعمل بالنصيحة التي أسداها إليَّ وهي أن أنتظر، أنتظر قدومها لبحثها عني كما تملي عليها غريزتها كما أخبرني.

- سنجدها.. أعدك بذلك.

قالها نوح وهو يركل بقدمه علبة فارغة ملقاة على الطريق.

- نوح.. أنت في السابعة والعشرين ولا تكف عن ركل رمام الطريق!

تلفظ بها يونس في سخرية، وقد تبددت دموعه، وارتمت على وجهه ابتسامة عريضة.. وأردف:

- يا لحظي السيئ! أتنزه مع اثنين أحدهم لا يكف عن ذكر البذاءات، والآخر لا تكف قدمه عن ركل النفايات.

تعود ضحكات الجميع كما كانت في البداية.. عواد لـ يونس:

- هل تعلم أننا ذاهبون إلى القرية؟

سأل يونس:

- أي قرية؟

عواد محاولًا إخافته:

- القرية الملعونة.

قال يونس وقد ارتفعت زاوية فمه اليمني:

- ومن قام بلعنها؟!

يضيف عواد في حزم:

- من الأحرى لك أن تأخذ هذه الأمور على محمل الجد.

ثم أجال ببصره يمينًا ويسارًا، ودنا بالقرب من يونس هامسًا:

- نحن بالقرب منهم الآن.

رد يونس في غير اهتمام:

- لا تعنيني تلك الخرافات.

نوح:

- خرافات! وماذا عن ملك الجن الذي حرق بعد أن قيده أهل تلك القرية؟

يرد يونس في حزم:

- ولماذا حرقوه؟! أو لماذا قيدوه من البداية؟! أو من الأحرى أن تسأل كيف قيدوه من الأساس!

رد نوح:

- البعض يهمس بأن ذلك الملك حاول أن يتزوج أجمل فتاة بالقرية، وعندما علم أهل القرية بذلك أقسموا على الانتقام منه، فقاموا بجمع عدد كبير من الدجالين والسحار من القرية والقرى المجاورة، وأجمعوا على تقييده وحرقه.

قال عواد بصوت خفيض:

- اللهم احفظنا.. لقد سمعت أن عشيرة الملك أقسمت على أن تزيق أهل تلك القرية ضروب من العذاب، كانتقام لملكهم من أهل القرية.

يصيح يونس في حزم:

- كل هذا ما هو إلا تيمات وأساطير ابتدعها البشر من بني آدم.

قال عواد:

- وماذا عن الحوادث التي تقع عند مدخل القرية؟ يجمع الناس من هذه القرية ومن القرى المجاورة أن هذه الحوادث ما هي إلا انتقام عشيرة الجن.

سأل يونس:

- هل تقصد حوادث السيارات التي يصاب مستقليها ولا يموت منهم أحد؟!

رد عواد:

- نعم.

يونس في سخرية:

- لابد أن عشيرة الملك تتسم باللطف والمودة.. ينتقمون من حرق ملكهم بإصابات خفيفة.. هل تسمي هذا انتقامًا؟!

يتوجه نوح لـ صديقه سائلًا:

- ابتدعها البشر من بني آدم.. لماذا؟! برأيك، ما الذي يدعو المرء إلى خلق أناس وأحدث من الأرجح أنها تقلقهم وتعكر صفوهم؟!

يرد يونس في ثبات:

- الحياة تكون مملة بعض الشيء، وعندما يزيد الملل يتسابق البشر وبإبداع شديد متقن في خلق الأساطير والتيمات، وذلك لجعل الحياة أكثر إثارة وأقل مللًا.

وتابع:

- ففي الأرياف تجد النداهة التي تجوس الحقول ليلًا، تنادي على ضحاياها وفرائسها، لقد حكى لي والدي يومًا، بأن لها نداءين؛ بعد النداء الأول يصبح صاحب النداء -الضحية- هائم الوجه، شارد الذهن، لا يعي ما حوله، ولا يكف عن التفكير في مصيره.. يظل هكذا لمدة أسبوع حتى موعد النداء الثاني الذي يهرول بعده إلى مصدر النداء ثم يختفي إلى الأبد.. وفي الصعيد، يوجد ذلك الكائن الذي يدعي بالمسحور الذي يخرج من النهر ليلًا ويجلس بالقرب منه، بهيئة تشبه إلى حد كبير هيئة بني آدم، ولكن بشعر طويل أشعث يتسايل على وجهه، عندما ترمقه للمرة الأولى تقرر أن تدنو منه لترى من يكون هذا، ولماذا يجلس عند طرف النهر ليلًا، حتى يباغت بضمك والقذف بك في الماء، ثم تختفي أيضًا إلى

الأبد.. وفي المناطق الساحلية، توجد عروس البحر التي بمجرد أن يرمقها أحد، يهيم بها، فيقرر القفز في الماء ليقفو إثرها ثم يختفي إلى الأبد.. الموضوع غير قاصر على مصر فقط؛ ففي إحدى الدول العربية، يوجد جبل تسكنه قبائل من الجن -كما يدعون- وبمجرد تفكير المرء في صعود الجبل ليلًا... قال عواد مقاطعًا:

- يختفي إلى الأبد؟! صحيح؟

يتابع يونس الحديث:

- نعم.. حتى أوروبا في العصور الوسطي لم تسلم من هذا، فعند حوث ظاهرة كسوف الشمس، كان الناس يبكون منتحبين لأن الغول آكل الشمس، ويهرولون مختبئين في المنازل الكهوف.. وذلك لأن فكرة بقاء المرء وعدم اختبائه تعني الاختفاء إلى الأبد.

تنهد يونس وأردف:

- من الأفضل أن نعود حتى لا نختفي إلى الأبد.

تتمكن الابتسامات من أوجه ثلاثتهم، وعلى بعد أمتار قليلة منهم ترامى طريق ترابي على اليسار، قد تفرع من الطريق الرئيسي.. أشار عواد بيده اليمنى إلى الطريق:

- هذا هو الطريق المؤدي إلى القرية.

وما إن انتهى عواد من ذلك حتى تسمر يونس في مكانه جاحظ العينين بلا حراك، لا ينبس ببنت شفة.. نوح:

- أهي لحظات ما قبل الاختفاء؟!

رد عواد:

- لقد حذرتك منهم، لكنك سليط اللسان.

يتكلم يونس وقد بدأ في السير نحو الطريق ملوحًا بذراعه:

- أترون ما أراه؟!

نظر نوح إلى عواد؛ فهما لا يرون شيئًا، فخطى يونس بضع خطوات أخرى إلى الأمام تلاه في ذلك صديقاه.

***

كان يونس ينظر إلى آخر خيوط الشمس المتأهبة للرحيل عند الغروب، ولكنه أدرك أن عند هذه المنطقة -بداية تفرع الطريق الترابي من الطريق الرئيسي- تكون أشعة الشمس غير مكتملة التذهيب، أي يتخللها بعض المناطق المظلمة غير مضيئة، سار يونس بضع خطوات أخرى للأمام ليرى شعاع الشمس في منطقة أخرى، ولكنه وجده مكتمل الاصفرار، لا يشوبه أي نقاط مظلمة غير مضيئة، عاد يونس إلى المنطقة الأولى مرة أخرى وأخد يتمعن النظر فيها.. يونس:

- هذه أول مرة أرى فيها هذا، لم أشاهد من قبل شعاعًا للشمس في أي مكان يتخلله نقاط مظلمة كهذه، وفجأة بدأ في الركض للخلف، عائدًا إلى غرفته صائحًا، فرحًا أثناء ركضه المتواثب:
- نقطة لينة! لقد بدأت الأبعاد في الظهور.. سنأتي إليكم وتأتون إلينا.

تتعالى ضحكاته تارة ثم يردف تارة أخرى:

- نقطة لينة! هاهاها.. ستفتح البوابات.

استمر هكذا يضحك تارة، ويتمتم تارة أخرى، حتى تلاشى خياله عن الرؤية، وتلاشى صوته عن السماع.

نظر كلاهما إلى الآخر آملين في إعادة ضحكاتهم إلى مكامنها، ولكنهم لم ينجحوا، لينفجروا في بركان من الضحك المستمر.. وسأل نوح:

- نعود أم نكمل الطريق؟

وعلى بعد خطوات قليلة من أبصارهم، كانت هناك عربة متهدمة يجرها حصان، تعرج من الطريق الرئيسي من أمامهم إلى الطريق الترابي المؤدي إلى القرية، يعلوها حفنة من الشحاذين، مكفهري الأوجه، عابسي الملامح، تحدبت ظهورهم، وتبددت صلابتهم، يرتدون أسمالًا بالية، كانوا جميعًا هائمين شاردين،

بعضهم ينظر إلى العدم، وآخرون دفنوا رؤوسهم بين ساعديهم، كان بينهم طفلة لم تتجاوز الخامسة تلهو في مقعدها على أرض العربة المستوية، ومكث بجانبها عجوز طاعن في السن على رأسه كومة من الشعر الملبد لم يمشط منذ زمن، بلحية بيضاء كذيل النيزك، تجذب الطفلة لحية العجوز لينظر إليها مبتسمًا بعينين أصابها الكلال، يضرب سائق العربة الحصان ليجبره على السير، لتجتاز العربة الطريق متوجهة إلى مقصدها.. عواد:

- بعد هذا من الأفضل أن نعود.

نوح:

- وأنا أيضًا أرى ذلك.

وأثناء عودتهما، كان الغسق تلاشى تمامًا، وبدأت بوادر الظلام في الظهور، وعلى حين غرة ظهرت فتاة في أوج نضارتها ورونقها، دقيقة الأنف والخصر، ذات شعر أسود كسواد قاع محيط، جعلت منه خصلة واحدة، وبعينين سوداوين واسعتين نافذتين إلى صمم القلب، تتسايل العبرات على وجنتيها لتضيف إلى جمالها جمالًا.. كانت حقًّا فاتنة، استراق نوح النظر إليها في دهشة وتمتم:

- الحلم!

مد يده في جيبه ليخرج قلمه وإحدى أوراقه وبدأ في الكتابة.

"ها هي أمامي الآن، تبكي كما كانت تبكي، فاتنة كما كانت فاتنة، في منامي لم أستطع أن أصل إليها، ولكن الآن لا مفر من ذلك.. لا أعلم ماذا أفعل، لا أعلم ماذا يفعل المرء حين يرى فاتنة في حلمه ثم يعود ليراها بعد الغروب، لا أعتقد أني نائم الآن؛ فعواد بجانبي لا يكف عن الثرثرة ".. وتوجه لصديقه:

- عواد عد لدارك؛ الوقت تأخر، عليك أن تكون في الفراش قبل الحادية عشرة حتى لا تقلق والدتك.

اقترب نوح منها وتمتم:

- آآآ.. آســف.. لماذا تبكين؟ أقصـــد لماذا أنتِ هنا بمفردك؟! أرجوكِ لا توبخيني على تطفلي، أو تصفعيني لتدخلي فيما لا يعنيني.

أفتر ثغر الفتاة عن ابتسامة امتزجت بدموع وجنتيها:

- ضاعت نقودي، ولا أعلم كيف أعود إلى المنزل.

قال نوح:

- ولكن نقودي لم تضِع.

وأردف:

- هل من الممكن أن أرافقك إلى دارك؟

لم ترد الفتاة واكتفت بابتســامة عابرة، ثم أشــاحا بوجههما صــوب الطريق تـأهبًا للســير.. أجـال عواد بنظره عمـا حولـه، وتيقن أن الظلام حـل بكل أبعـاده، ليتـأهـب هـو الآخر للرحيـل موليًـا ظهره إلى القريـة وإلى ذلـك الطريق الترابي المؤدي إليها.

****

-٥-

أزمعت الرحيل

"مضى ستة أيام على رحيلك، ولكنهم أخبروني أن الحادث وقع منذ عشرين يومًا، وأنكِ رحلتِ في أعقابه، وأني توطنت الفراش في سبات سحيق لأربعة عشر يومًا غير آنس لما يدور حولي، لقد سألني الطبيب مداعبًا عن عمري، ولم تكن إجابتي له سوى تحديقي في نقطة واحدة كانت على مرمى بصري وامتلاء عينيَّ بالدموع.

لم يفهم الطبيب يا ديار ما تفضي به دموعي، ولو أنها تمكنت من الحديث لأخبرته بأن العمر إذا كان يحسب بالشهور والأيام؛ فأنا أملك الكثير من السنوات، أما إذا حسب بما حققه المرء من أهداف أصبح بها غض سعيد؛ فأنا لا أملك سوى خمس سنوات وعدد ليس بكثير من الأيام، كانت بداية سنواتي حين لقياكِ، تطلعت إليكِ في منامي وأنتِ ترمقين نجوم السماء وهي تقاوم الظلام ليلًا، كأنكِ واحدة منهم، حينها دنوت منك أكثر لأرى أي من تلك النجوم تدانيكِ في الجمال والبهاء، ولكني لم أجد.

نعم يا ديار لقد كنتِ أكثرهم جمالًا، وأحسنهم رونقًا، وأنقاهم بهاءً، نسيت أن أخبرك أن مريم لا تكف عن السؤال عنكِ، وعن أين ذهبتي ومتى تعودين، وأنا لا أجد ما أجاوبها به سوى دموعي التي تتساقط كالصنبور المكسور، لقد اشتقت كثيرًا لحديثك المورق، ولمزاحك السخيف، ولعبقك الفردوسي الطيب، وأحن إلى حفيف ثوبك الخافت.

نعم يا ديار أقر بأني لا أقدر على العيش من دونك، مع أنهم أخبروني أن الأيام ستنسيني، ولكني لا أجد في النسيان إلا كل ذكراكِ، إن هذه الشرفة التي تفضي بنظري هي وسيلة للذهاب إليكِ؛ فبعد أن أصعد على سورها الصغير وأنظر أعلاي

إلى ضوء الكون السرمدي، فما هي إلا لحظات قليلة ويهرع مَن بالطريق إلى جسدي الملقى بالقرب من أناملهم غارقًا في دمائه، وقد أدركوا حينها أن بضع وريقات من الجرائد هي ما تبقت لجسدي من هذه الدنيا لغطائه، وبعد أن ترتقي هذه الوريقات بدمائي يأتي أحدهم بجسدي إلى المستشفى، ثم إلى مثواي الأبدي الأخير، ستنحب أمي كثيرًا، ويزداد جسدها ضمورًا، وتزداد أسئلة مريم أكثر، ولكنهما سيفرحان عندما يعلمان أننا معًا".

***

طوى نوح مفكرته بعينين باكيتين، واضعًا قلمه حيث انتهى من الكتابة، نهض من فراشه بعد أن أزال غطاءه، وبخطوات متباطئة متلكئة اتجه صوب الشرفة وقد أصابه التردد والخوف، ولكنه استمر في سيره الفاتر.

كان عقله يعج بالأحداث التي سبقت الحادث، وعندما وصل إلى باب الشرفة تذكر مريم وعيد ميلادها، وسر ديار التي أرادت أن تخبره به، آه لو علم ذلك السر الآن، وما إن بدأ في الصعود على سور الشرفة حتى أخذ جرس الهاتف في الرنين، لم يعبأ به ولكنه تذكر مكالمة يونس قبل الحادث، وصخبت في عقله أصوات كثيرة "ما هو مصير القط؟! أكوان متعددة.. الماضي مشترك والمستقبل منفصل.. نسخ أخرى منا.. ربما اختلفوا عنا في المهنة وقرارات الحياة.. يوجد أكثر من بعد.. نقطة لينة.. لقد توصلت لطريقة العبور والنفاذ".. نظر نوح إلى أعلاه حيث نور الكون..

- يونس!

قالها وهو ينزل بسرعة من على سور الشرفة قاصدًا منزل صديقه يونس.

****

-٦-

التفسير الثاني

يصــعد نوح أعلى الكرســي المتهالك في مشــقة، ليدير قرص المذياع ، فيعلو صــوت الــلا أشـــارة، يــرتــفــع صـــوت قـــادم مـــن خـــلـــفـــه:
يصـعد نوح أعلى الكرسـي المتهالك في مشـقة، ليدير قرص المذياع ، فيعلو صـوت اللا إشارة، يرتفع صوت قادم من خلفه:

- أدر القرص في الاتجاه المعاكس.

يلبي نوح صـــوت النداء، ويدير القرص في الاتجاه المعاكس، ولكن لا يكف صوت التشويش الإستاتيكي عن الصياح.. نوح:

- أظنه قد عطب.

نزل نوح من على كرسيه وجلس صوب صديقيه، وتوجه ليونس بالحديث:

- أخبرني ما ســبب ركوضـــك البارحة، وعن معني كلماتك التي تفوهت بها أثناء ركوضك البارحة، وأين ذهبت بعد أن انتهيت من ركوضك البارحة؟

يضيف عواد مبتسمًا:

- والأهم من ذلك كله أن تخبرنا عن تفسير الشيء الذي رأيناه قبل أن تبدأ في الركض ليلة البارحة.

يجيب يونس وقد اعتلت وجهه أمارات الانتشاء:

- التفسير الثاني يا بهوات!

قال عواد:

- استحلفك بالله يا أخي.. ليس بالضرورة في كل مرة أن أخبرك بذلك.

سأل يونس:

- بماذا تخبرني؟

- صعوبة الفهم.. أعاني منها كثيرًا.

رد يونس:

- آه... ينبغي لي أن أوضح أكثر.

وتابع:

- ما شاهدنا ليلة البارحة ما هو إلا التفسير الثاني لمصير القط.

قال عواد لنوح:

- آه.. في المرة السابقة لم يخبرنا يونس إلا بالتفسير الأول فقط.

يبدأ يونس في الشرح من جديد:

- منذ يومين تكلمنا عن ظاهرة اختلاف الأشكال والصور التي يظهر بها الجسم المتحرك في المستوى الكمي، وأخبرتكم أن هذه الظاهرة تشبه تمامًا المثال الآتي؛ تخيل أنك تمسك تفاحة، وعندما تشيح بنظرك عنها ثم تعود لتلتفت إليها تجد أنها برتقالة، كل من الثمرتين مشتركتان في شيء واحد وهو كونهما فاكهة، ولكنهما مختلفتان في الشكل واللون والرائحة والطعم... إلخ.. وذكرنا أيضًا التفسير الأول لهذه الظاهرة وهو تفسير كوبنهاغن الذي يخبرنا أن الجسيمات والمواد الكمية -أي التي تتحرك في المستوى الكمي- لا توجد في حالة واحدة فقط بعينها، وإنما توجد في كل الحالات الممكنة لها في ذات الوقت، مجموع تلك الحالات تسمى بدالة الموجة. وتابع:
- ويتابع كوبنهاغن في شرح تفسيره، أنه عند ملاحظة الشيء الكمي فإن الملاحظ يقوم بكسر دالة الموجة له، وبالتالي يجبره على الظهور بحالة واحدة فقط.

نوح في سأم:

- عرفنا هذا كله.. أخبرنا الجديد من فضلك قبل أن يزداد ضجرنا.

يعاود يونس الشرح من جديد:

- التفسـير الثاني لهذه الظاهرة هو ما تخبرنا إياه نظرية الأكوان المتعددة، وسـأبدأ أولًا بشـرح النظرية ومعانيها الفيزيائية ، ثم سـأذكر تفسـيرها للظاهرة السابقة. وأضاف:
- الزمان.. في ظهيرة أحد أيام عام 1954م، المكان.. في إحدى قاعات جامعة برنستون في أمريكا، الحدث.. مناقشة رسالة بحثية مقدمة من الباحث هيو ايفرت، عنوان الرسـالة "الأكوان المتعددة"، مضـمون الرسـالة؛ يوجد العديد من الأكوان المشـابهة للكون الذي نعيش فيه، كل هذه الأكوان على علاقة بنا، ونحن على علاقة بهم، هذه الأكوان متفرعة من كوننا الذي نعيش فيه، وكوننا متفرعًا من أكوان أخرى.. والتشـابه بين تلك الأكوان يكمن في أن البدايات متشابهة، ولكن النهايات مختلفة؛ أي أن حروبنا التي عاهدناها لها نهايات مختلفة في تلك الأكوان؛ فالحرب العالمية الثانية انتهت بهزيمة ألمانيا وانتحار هتلر، ولكن في كون آخر انتصر هتلر، وشاعت النازية في العالم.

وأضاف:

- أيضًـا الأنواع المنقرضـة من نباتات وحيوانات في كوننا، تطورت وتكيفت في أكوان أخرى، ربما انقرض بنو الإنسـان في أحد تلك الأكوان.. فـانقراض الديناصورات في كوننا لا يعني بالضرورة انقراضها في كون آخر، ربما لا تزال حية على أحد تلك الأكوان، ربما أيضًـا لا يزال حيوان الماموث الصوفي حيًّا على جميع تلك الأكوان، ويكون انقراضه فقط في كوننا.. وعلى شـاكلة هذا تكون بقية الأمثلة، ففي كون آخر لم يعتزل أبو تريكة كرة القدم، وعلى آخر يكون الزمالك هو بطل القرن الافريقي، وفي ثالث أنت لم تولد بعد، وفي كون رابع توفيت منذ زمن.

وتابع:

- الغرض من النظرية هو الإجابة عن سؤال "لماذا تتحرك الأجسام الكمية حركة اعتباطية عشوائية غير منضبطة؟".. أي تفسير ظاهرة اختلاف الأشكال والصور التي تظهر بها هذه الأجسام تبعًا لحركتها العشوائية غير المنضبطة.

وأضاف:

- تفسير النظرية لهذه الظاهرة.. وكان التفسير كالآتي: "في البداية أتفق أنا الباحث هيو إيفرت مع ما قاله العالم نيلز بور حول ظاهرة الوضع الفائق للمواد الكمية، وعلى أن المادة الكمية توجد في جميع الحالات الممكنة لها، وهو ما أسماه بدالة الموجة، ولكني أختلف معه في الآتي: عند رصد وملاحظة المادة الكمية، فإن ذلك يؤدي إلى كسر دالة الموجة لها، وإجبارها على اختيار حالة واحدة معينة للظهور، ولكني أقول إن قياس وملاحظة المادة الكمية لا يجبرها على كسر دالة الموجة الخاصة بها، أي لا يقسرها على اتخاذ حالة واحدة معينة للظهور، وها أنا أضيف أن رصد المادة الكمية يسبب تفرعًا حقيقيًّا في الكون؛ فالكون هنا تم نسخه إلى عدد من الأكوان، كل كون منها هو عبارة عن نتيجة محتملة للقياس والرصد، أي نتيجة محتملة لـ دالة الموجة؛ فعند رصد أو مشاهدة الفوتون من وجهة نظر بور يؤدي ذلك إلى كسر دالة الموجة له، وإجباره على التصرف كموجة أو التصرف كجسيم، أما عند رصد الفوتون من وجهة نظري أنا، فإن ذلك يؤدي إلى جعل الكون ينقسم إلى كونين لتلبية كل من احتمالات الرصد، وعلى ذلك فالراصد في أحد الكونين يجد أن الفوتون يتصرف كجسيم، أما الراصد المشابه له في الكون الآخر يجد أن الفوتون يتصرف كموجة، وهذا هو الفارق الذي يجعل التفسيرين منافسين لبعضهما بعضًا في شرح ذلك.. وتابع:

- فبالنسبة لقط شرودنجر فعند فتح الصندوق؛ أي عند رصد المادة الكمية، يتفرع الكون إلى كونين لتلبية احتمالات الرصد، كون فيه تحللت المادة الكمية فمات القط، والكون الآخر لم تتحل فيه المادة الكمية فعاش فيه القط.

سأل نوح:

- إذًا عند أي لحظة اتخاذ قرار فإن الكون ينقسم إلى عدد من الأكوان تكون كافية لشغل الاحتمالات الممكنة لهذا القرار؟

رد يونس:

- نعم.. آمل أن تدركوا ذلك.

يعود نوح للسؤال من جديد:

- ولكن، هل معنى ذلك وجود عدد لا نهائي من الأكوان؛ وذلك لأن في كل لحظة أحدهم يتخذ قرارًا؟
- نعم.

يتابع نوح في السؤال:

- إذًا متى تكونت كل هذه الأكوان؟ أي متى نشأت هذه العوالم؟ وأين تقع؟ وأيهما الأصلي وأيهما التابع؟

رد يونس:

- لا أعلم.
- إذًا مَن يعلم؟

عاد يونس للشرح:

- منذ أن أعاد هيو إيفرت طرح هذه النظرية وهي تواجه انتقادات شديدة، ولكنها كانت مؤيدة بصورة أشد.

قال عواد:

-أعاد هيو ايفرت طرحها؟ إذًا هو لم يكن الصاحب الأصلي للنظرية.

يونس:

- نعم؛ فالنظرية لها جذور تاريخية قديمة جدًّا؛ فالأيطالي جوردانو برونو هو أول من أشـــار إليها في كتاباته، فهذا العالم ولد في مدينة نولا ســـنة 1548 حيث قال في إحدى كتاباته: "إن الشمس ليست إلا نجمًا، والأرض ليسـت مركز الكون، وأن هذا العالم الذي نعيش فيه يوجد مثله عدد لا نهائي من العوالم، وكل هذه العوالم تحتوي على حياة ذكية".

قال عواد:

- قال هذا في العصـــور الوســـطي! يا له من مجنون! ســـاق قدميه بنفســـه للانتحار.

رد يونس:

- هــذا مـا حـدث بـالضـــبط؛ فقـد بـدأ بنشـــر أفكاره من خلال كتبـه ومحاضراته، فصادرت الكنيسـة كتبه، وأوصت على تنحيه من منصبه، وســـرعان ما بدأت محاكم التفتيش في اللحاق به، فهرب إلى دول عدة منها فرنســـا وبريطانيا.. وفي ســـنة 1591م وأثناء مكوثه في ألمانيا تلقى رســـالـة تـدعوه للرجوع إلى إيطاليا بـداعي أن محـاكم التفتيش ضـــمر تأثيرها، فرجع وسرعان ما ألقت محاكم التفتيش القبض عليه، ووجهت لـه عـدة تهم أهمهـا الكفر والســـحر والهرطقـة، وأخيرًا إيمـانـه بتعـدد العوالم، فسجن سبع سنوات في أبراج نونا في روما، وأثناء سجنه عرض عليه الكارنيال أن يطلق ســـراحه مقابل الرجوع عن آرائه حول تعدد العوالم ولكنه رفض، فصـــدر عليه حكم المذنب، وطالب القاضـــي ألا تريق الســـلطات دمه، وأن يعدم بإضـــرام النيران فيه، وبالفعل أعدم العالم والفيلسوف والرياضي جوردانو برونو، وألقيت ذرات رماده في نهر التيبر، ووضـــعـت جميع كتبـه على قـائمـة الكتـب الممنوعـة من الطبع والتداول؛ وذلك لحماية إيمان وأخلاق المؤمنين من المسيحيين آنذاك.

قال عواد:

- أولى ضحايا النظرية!

تابع يونس:

- وفي سـنة ١٨٨٩م، رفع لبرونو تمثال تذكاري في المكان الذي حرق فيه في روما؛ تقديرًا له حيث يعتبره البعض شهيد العلم.

نوح:

- إذًا، منذ البداية والنظرية تهاجم بشدة؟

يونس:

- نعم.

سأل نوح:

- وما الرأي السائد الآن؟

رد يونس:

- البعض يؤيد النظرية، والبعض يستنكرها بشدة، وهذا ما ظهر سنة ١٩٩٥م عندما قام الباحث ديفيد روب باقتراع على 72 فيزيائيًّا بارزًا، وكانت نتيجة الاقتراع اتفاق 60% منهم على حقيقة النظرية.

قال نوح:

- وما هي حجج مؤيديها؟

رد يونس:

- هناك العديد من الأسباب التي دفعت بالكثير للإيمان بالنظرية.. وتابع:
- عندما سطعت شمس نسبية أينشتاين كان من ضمن مفرداتها أن الكون الذي نحيا فيه يرتكز على شبكة تحتوي الزمان والمكان معًا (الزمكان)، وأن شبكة الزمكان تمتد إلى اللا نهاية، أي أن الزمكان غير نهائي، وحيث إن المواد الموجودة في الكون محدودة ومعدودة، وأن طرق تركيب ذرات هذه المواد مع بعضها بعضًا محدودة -أي أن الذرات

أصنافها وأنواعها محدودة كما في الجدول الدوري- إذًا عند لحظة معينة يبدأ الزمكان في تكرار نفسه، اذًا لابد وأن يكون في هذا الفضاء الكلي غير المتناهي أكوان مكررة، هذه الأكوان من الممكن أن تتشابه مع بعضها بعضًا في البداية، إلا أنها تنفصل عند نقطة معينة، هذه النقطة هي نقطة اتخاذ القرار كما ذكرنا.. ثم أشار يونس إلى نوح وأكمل:

- بناء على ذلك وفي مكان ما بعيد ما يكفي على نسيج الزمكان، نجد نسخًا أخرى لك بعضها يفعل ما تفعله أنت الآن، والآخر ارتدى لباسًا، وتناول طعامًا مختلفًا هذا الصباح، ونسخًا أخرى اختلفت عنك تمامًا في المصير والمهنة وقرارات الحياة.

قال نوح:

- إذًا الماضي مشترك والمستقبل منفصل.

يونس:

- نعم.

عواد:

- الحجة الثانية؟

يونس:

- عالم من جامعة تافتس يدعي ألكسندر فيلنكن اقترح أن هذه الأكوان نشأت من نظرية تسمى التضخم الأبدي، ويرمز التضخم الأبدي إلى أن الكون يتوسع ويتمدد بشكل سريع منذ حدوث الانفجار العظيم، وهذا ما جعل الكون يشبه البالون، واقترحت هذه النظرية أن هناك مناطق في الفضاء توقفت تمامًا عن التضخم، وفي المقابل هناك مناطق أخرى استمرت في التضخم، ولذلك ستنشأ العديد من الأكوان الفقاعية..

نهض يونس من مكانه وأشار بكلتا يداه:

- أي أن أرضنا ونجومنا وشمسنا وكل ذرة في كوننا عبارة عن فقاعة صغيرة في بحر واسع من الفضاء، يحتوى على الكثير من الفقاعات الأخرى.

عواد:

- من رأيي أن...

قاطعه يونس:

-لم أنتهِ من كلامي بعد..

عاد عواد إلى سكونه حرجًا، وبدأ يونس في استكمال حديثه:

- اقترحت نظرية الأكوان الفقاعية أيضًا أن قوانين الفيزياء والثوابت الأساسية مثل سرعة الإلكترون وكتلته وسرعة الضوء... إلخ، تختلف من كون إلى آخر، وهذا ما يجعل الأكوان الأخرى غريبة بعض الشيء أو جدًّا عنا.. أي أنه لكل كون من تلك الأكوان ثوابته الخاصة، وبمناسبة الثوابت هناك مبدأ يسمي بمبدأ الأنثروبي أو المبدأ الإنساني هذا المبدأ ينص على أن الكون الذي نعيش فيه يحتوي على مجموعة عوامل من قيم ومعادلات وقوانين مما تجعله مكانًا قابلًا للحياة، ولو حدث خلل بسيط أثر في أي قيمة من هؤلاء لما أصبح لكوننا أي وجود.. فإذا زادت قيمة أي ثابت من هذه الثوابت ولو بمقدار ضئيل جدًّا، لانطلقت جميع الأجسام بسرعة كبيرة جدًّا في الفضاء، بحيث لا يمكنها تشكيل النجوم والمجرات، ولو قلت قيمة أي ثابت من هذه الثوابت ولو بمقدار ضئيل جدًّا، لأنهار كوننا على نفسه متمركزًا في نقطة.. إذًا من الممكن أن تكون ثوابتنا بقيمها المعروفة في كوننا موجودة في أكوان أخرى ولكن بقيم مختلفة، مما يسمح بوجود حياة على هذه الأكوان، ولكن من المؤكد أن تكون هذه الحياة مختلفة عنا.

عواد:

- ولكنا لم نعرف سبب ركضك حتى الآن.

يبلل يونس شفته السفلى أتبعها بتنهيدة طويلة:

- منذ بداية البشـــرية ويتســـابق العلماء في تفســـير فحوى كوننا الأبدي، ويجتهدون في معرفة أصـــغر وحدة بنائية فيه.. وحتى وقت قريب كان الاعتقاد بأن نواة الذرة هي أصـــغر وحدة بنائية للأجســـام، ثم توالت مجموعة من النظريات والتفســيرات المؤكدة لهذا الرأي، وأخرى مقاومة له، إلى أن جاء نيلز بور وحطم هذا المعتقد بوضعه نموذجه الذري الذي ســـمي باســـمه، والذي كشـــف فيه أن نواة الذرة مكونة من جســـيمات صـــغيرة موجبة الشـــحنة تســـمى بروتونات وأخرى عديمة الشـــحنة نيترونات وتدور حولهما جســـيمات ســـالبة الشـــحنة تدعى الكترونات.. وبعد مرور عدة أعوام تم اكتشـــاف أن كلًّا من البروتونات والنيترونات تتكون من مجموعة من الجســـيمات الصـــغيرة جدًّا أطلق عليها العالم موري جيلمان اســـم الكواركات.. وبناءً على ذلك كانت الكواركات هي أصغر وحدة بنائية للأجسام، لا يوجد ما هو أصغر منها حتى جاء العالم الياباني الأمريكي ميشـــيو كاكو وأعلن للجميع أن الكواركات تتكون من حلقات أو أشـــرطة أو خيوط من الطاقة تســـمى أوتار، وحســـب طريقة تذبذب وتحرك هذه الأوتار تتحدد المادة، ويُعين سلوكها، ويُعرف نوعها.. وتنص نظريته على الآتي: "إن أصـــغر وحدة بنائية في كل المواد هي عبارة عن أربطة مطاطية جدًّا من الطاقة تســـمي أوتار، وهذه الأوتار هي من تصـــنع الكواركات، ثم البروتونات والإلكترونات وتباعًا الذرات والخلايا وهكذا".

وقبل أن يبدأ عواد في الحديث أشار إليه يونس أن يسكت.. وأردف:

- من المعروف قبل نظرية النســـبية، أن عدد الأبعاد التي يمكن أن يدركها الإنســـان هي ٣ أبعاد وهي؛ الطول والعرض والارتفاع، وعندما أضـــاء أينشـــتاين نوره، وبزغت النســـبية، أضـــاف بعدًا آخر لهذه الأبعاد وهو

الزمن لتصبح الأبعاد أربعة.. إلى أن جاءت نظرية الأوتار، ووجد دارسوها أن الأربطة المطاطية تتحرك في عشرة أبعاد أي أضافة ستة أبعاد أخرى للأبعاد الأربعة المعروفة.. ثم جاءت الكثير من النظريات الوترية لتفسير نظرية الأوتار، وكان لكل نظرية وترية منهم أبعاد مختلفة عن الأخرى، إلى أن جاء إدوارد ويتن ووحد كل النظريات الوترية في نظرية واحدة سميت بأم النظرية ويضيف بعدًا آخر إلى الأبعاد العشرة المعروفة، ويصبح العدد الكلي والنهائي للأبعاد هما أحد عشر بعدًا، هذه الأبعاد ملتفة حول بعضها بعضًا.. وما دامت الأوتار تتحرك في أحد عشر بعدًا، إذًا تتحرك الكواركات ايضًا في عدد مساو لهذه الأبعاد، وبالتالي تتحرك البروتونات والنواة والذرات في أحد عشر بعدًا، وبما أننا نتكون من ذرات إذًا نتحرك نحن أيضًا في أحد عشر بعدًا. وتابع:

- أي أن السبب الثالث لجعل العلماء مساندين لنظرية الأكوان المتعددة هو كثرة أبعاد كوننا، صحيح أننا لا ندرك هذه الأبعاد لكنها موجودة، هذه الأبعاد ربمًا تشكل عوالم مختلفة أو مشابهة لعالمنا.

امتعض نوح قليلًا وتثاءب ثم قال:

- بعد كل هذا أخبرنا، ما هو سبب انطلاقك البارحة؟

يونس في ثقة:

- من الأسباب الثلاثة السابقة وعند ربط كل من الآتي؛ كسر دالة الموجة، تفرع حقيقي في الكون، أكوان مكررة، ينفصلان عند نقطة، في أحد الكونين وجد الراصد أن الفوتون يتصرف كموجة، والراصد في الكون الآخر وجده يتصرف كجسيم، أربطة من الطاقة تتحرك في أحد عشر بعدًا، هذه الأبعاد ملتفة حول بعضها بعضًا، نجد أن على هذا الطريق وعند مدخل القرية تحديدًا توجد نقطة تتداخل فيها الأكوان المتعددة، أي أن تفسيري لظاهرة شعاع الضوء الأصفر الذي تتخلله مناطق

مظلمة هو عبارة عن تداخل بين الكون الذي يتصـرف فيه الفوتون كموجة، والكون الذي يتصـرف فيه الفوتون كجسـيم، وهذا ما يعرف معمليًّا بتجربة الشـق المزدوج وهي تجربة أجراها العالم توماس يونج لدراسـة التداخل بين الخواص الموجية والخواص الجسـيمية للضـوء.. أطال كلاهما النظر في يونس، توحي جفونهم المرتفعة ببلاهتهم الشديدة، يتكلم نوح وهو جاحظ العينين:

- أي أن بالقرب من مدخل القرية توجد منطقة تتلاقى فيها أبعاد الأكوان المختلفة التي تحدثت عنها؟!

يونس:

- نعم، وهذه المنطقة تسمى بالمنطقة اللينة.. وأردف:
- سـتزداد أعينكم جحوظًا اذا علمتم أن عند هذه المنطقة يمكن الانتقال من كون إلى آخر، وسـتصـل دهشـتكم إلى الذروة إذا علمتم أني أحاول العثور على طريقة لجعل هذه الأبعاد أكثر ظهورًا، حتى نتمكن من المرور منها.

نوح:

- تمنيت أن أوجه لك سؤالًا منذ أن التقينا أول مرة.

يونس:

- تفضل!
- لماذا شـخص ناضـب العلم مثلك ملقى في هذه الغرفة؟! لماذا لا توضـع صورك في الصحف والجرائد؟!

يجيب يونس ساخرًا:

- توضع صوري في الصحف والجرائد! إذًا أين توضع صور السياسيين والفنانين ومحترفي الكرة!

عواد عابثًا:

- وأنا يا نوح تمنيت أن أسألك أيضًا سؤالًا منذ أن التقينا.

نوح:

- تفضل.
- لماذا لا تثوي على منضدتك قوارير اختبار وسحاحات ولا تمتلك أجهزة كالأميتر والفولتميتر ولا يثبت على جدار غرفتك صور لتسلا أولنيوتن رافسون؟ لماذا لا ينبعث من غرفتك أصوات ناتجة عن تفاعل مركبين أو روائح ناتجة عن خلط محلولين؟ لماذا لا يشع منها ضوء ناتج عن انفجار أو انشطار؟

يرد نوح مازحًا:

- كنت أملك في صغري الكثير من الألعاب منها عربات السباق، كنت أجتهد في تبديل محتويات كل عربة بالأخرى، أضع محرك العربة الزرقاء في العربة الحمراء، أبدل إطارات كل منهما، كنت منهمكًا في هذا العمل، تسقط عويناتي الطبية فأعدل من موضعها، أجفف العرق المتناثر على جبيني، وأستمر في العمل، وفي كل مرة تأبى العربات أن تعمل.

أصابني اليأس بعض الشيء في البداية، وعندما كانت النتيجة واحدة لا تتغير، وهى أن العربات ترفض أن تعمل تيقنت تمامًا أن هذا العمل لا يناسبني على الإطلاق.

يونس وهو يحني ظهره للخلف ويعدل من وضع قدميه:

- دعك من هذا.. حكى لي عواد عبر الهاتف عن غدوك في السير ليلة البارحة، أخبرني أنه كان يموت رعبًا بعد ركوضك.

أجاب نوح وقد التمعت عيناه:

- فتاة الوادي!

يونس:

- آه.. تلك الفتاة التي تجثو هائمة باكية عند الطرف الأخضـــر من الوادي تحملق في قناديل السماء ليلًا؟

- نعم.

يونس:

- أن يري المرء أناسًـــا في النهار ثم يعود ليلًا فيرونهم في أحلامه هذا هو ما جرت به العادة، ولكن على غير العادة أن تشاهد فتاة في أحلامك ليلًا ثم تحادثها بعد بضعة أيام، أظن أن هذا غير مألوف.

نوح:

- ولكن هذا ما حدث.

عواد:

- وماذا دار بينكم؟

يجيب نوح:

- لا شئ غير أنها أضاعت حقيبة نقودها ولم تستطع العودة إلى مسكنها، ثم لا شيء غير أني رافقتها إلى هناك، وأثناء الطريق تحدثا معًا عن الزواج وبعض أمور الحياة، وما إن وصـــلنا إلى البيت حتى طلبت مني الدخول، ثم لا شـيء غير أني احتسـيت قدحًا من الشـاي في شـرفة منزلها مع امرأة عجوز تناكب السـبعين من العمر.. آه لو رأيتموها أنها حقًّا عجوز ودودة جدًّا.. آه ثم لا شـيء غير أني طلبت يد ديار للزواج.. فوافقت العجوز، ثم لا شيء غير الاتفاق على موعد الزفاف.

يضيف يونس ساخرًا مستنكرًا:

- حقًّا لا شيء! يا له من سؤال!

وهنا كف عواد عن الإنصات وأشار بيده:

- لم ترَها إلا مرة واحدة وتطلب منها أن تكون زوجة لك؟! يا لك من معتوه!

يونس في كياسة:

- دعك منه هو، هي لم ترَه إلا مرة واحدة فتوافق! يا لها من معتوهة!

نوح في غير اهتمام:

- لا أعبأ بحديث أيٍّ منكم، طالما رددت أمي بأن النصيب يأتي في أي لحظة.

عواد مقاطعًا:

- أتذكر أن هذه الكلمات كثيرًا ما يرددها معلقو مباريات كرة القدم، وليست أمك.

ابتسم يونس ابتسامة خفيفة.. يتكلم نوح وقد غزا العبوث وجهه:

- لا داعي للانتظار ما دام كل شيء جاهزًا.

عواد:

- وما كان رد والدتك على ذلك؟

- رفضت في البداية بداعي أننا لا نعلم أصلها ولا ندري شيئًا عن عائلتها، ثم سرعان ما انصاعت لحديثي.. وأضاف:

- انت تعلم بأنها لا تملك أبناء غيري؛ فهي دائمًا ترضى بحديثي.

يضيف يونس وهو يربت على كتفيه:

- نحن نعبث معك.. على كل حال الف مبروك.

وقبل أن يُشيع نوح وعواد إلى الباب لاحظ نوح صورة امرأة في الحائط، نهض نوح نحو الصورة ليدركها أكثر:

- والدتك؟

ليرد يونس وقد قطب حاجبيه وأعتلى الحزن وجهه:

- نعم.

****

-٧-

الاستعداد للعبور

وثب يونس من مقعده الخشبي الخليع ليفتح الباب الذي عَلا طرقه، وارتفع صوت ضجيجه:

- نوح!

يدخل نوح من الباب وينساب إلى الداخل وهو يحاول إيجاد نقطة اتزان من شدة ما أصابه من ضعف، طالبًا مقعدًا للجلوس.. يونس:

- حمدًا لله على سلامتك يا أخي.

استطرد:

- تكاد عيني لا تصدق ما تراه، هل أنت نوح صديقي حقًا؟ -

وتابع وهو يربت على قدم صديقه:

- سحقًا لهذا الطبيب، لقد أخبرنا بأنك ستلازم الفراش لفترة ليست بقليلة.

ابتسم نوح في مرارة وهو يحاول إخراج بعض الكلمات:

- يونس لقد هاتفتني يوم الحادث بخصوص آآآ... وتابع في مشقة:
- آه.. لقد أبلغتني بعثورك على طريقة للنفاذ بين الأبعاد.

يرد يونس في عدم راحة:

- نعم.

نوح:

- وهل جربت ما توصلت إليه؟
- نعم.. ولكني لم أجرؤ على المرور منها.

نوح متسائلًا:

- لماذا؟

يجيب يونس في تؤدة:

- خفت أن أحبس هناك ولا أستطيع العودة، فقررت تأجيل ذلك إلى حين آخر، حتى يتسنى لي إيجاد طريقة مضمونة للعودة من هناك.

يربت نوح على قدم صديقه وقد تزاحمت الدموع في مقلتيه:

- أود أن أذهب إلى هناك.

يسأل يونس في تعجب:

- إلى أين؟
- إلى الجانب الآخر من الأبعاد.

تسأل يونس:

- لماذا؟

يرد نوح وقد خفت صوته جراء ما طرأ عليه من حزن:

- يونس أنت صديقي الوحيد ولا بد أن تساعدني، أود أن أذهب إلى أي مكان هي فيه حية لم تمت، أود أن أراها ولو لمرة واحدة، صدقني يا أخي لا أقدر على العيش من دونها.

يونس:

- ولكني لا أستطيع إرسالك إلى هناك.
- لماذا؟ ألم تخبرني أنك وجدت طريقة للذهاب؟

يجيب يونس:

- ولكني أخبرتك أيضًا بعدم معرفتي لطريقة العودة.

يصيح نوح في شوق:

- لا يهم.. المهم أن أذهب إلى هناك.
- لن تستطيع العودة من هناك، ستظل عالق في الأبعاد إلى أن تموت.
- ليكن كل ذلك، المهم أن أراها.

صمت يونس هنيهة وظل يفكر فيما حدث لصديقه، ويتفرس فيما أصابه من هزل وضمور، وما حل به من شحوب وفتور، حقًّا هو يعاني، ولا بد من تقديم يد العون له، فهو يعرف كم أحب نوح زوجته! وكم هو مولعًا بها! إذًا فمن الضروري الرأفة به وتركه يذهب إليها.. يونس في تؤدة:

- ليكن.. ولكن لا بد من أن تصطحب أحدًا معك إلى هناك، صحتك لا توحي بالاطمئنان.

نوح:

- ولمَ لا تأتي أنت؟
- سأبقى هنا محاولًا إيجاد طريقة لعودتكم.

نوح:

- إذًا عواد يأتي معي.
- ليكن.. ولكن بما أبرر اختفاءكم؟

فكر نوح هنيهة:

- عواد لا يوجد من يكترث لأمره فهو يختفي بالشهور بداعي السفر، أما أنا فتخبر أمي بأني سافرت إلى الإسكندرية قاصدًا النسيان.

يونس في عجل:

- إذًا لنذهب إلى مدخل القرية الآن.

أخرج نوح هاتفه الخلوي محادثًا صديقه.. ليجيب عواد:

- حمدًا لله على سلامتك يا أ...

ليجيب نوح مقاطعًا:

- عواد.. نلتقي عند مدخل القرية بعد ربع ساعة.

لم يترك نوح فرصة لصديقه حتى يستفسر، وسرعان ما أغلق الهاتف.

- ٨ -

طفلة العربة

على حسب التقاليد المرعية لعائلة نوح، تمت مراسم الزواج سريعًا، وسرعان ما انخرط الزوجان في حياتهم الجديدة، فعاشا سعيدين لا يعكر صفوهما شيء، وبعد انقضاء عامهم الثاني رزقا بمولودهما الأول؛ طفلة، زادت أعين ديار لمعانًا عندما رأتها للمرة الأولى، واقتربت منها، فطبعت قبلة خفيفة على وجنتيها، واستدارت إلى زوجها مبتسمة:

- سأسميها مريم.

مرت السنوات سريعًا، وعاش ثلاثتهم منبسطي الأسارير، لا تفارقهم بهجة، ولا تتركهم مسرة، وذلك لكثرة الحب الصادق القابع في مكامن قلوبهم، ذلك الحب الذي لا يعكره أي شيء، إلى أن جاء ذلك اليوم؛ فقد بلغت مريم الثالثة، ودبت في المنزل جلبة الاحتفال بذلك اليوم، وبعد أن فرغ ضجيج الحشد، وشيع الجمع كلًّا إلى منازلهم، تأهب الثلاثة للخروج، فقد اقترح نوح تناول العشاء في مطعم راقٍ في إحدى المدن القريبة منهم.. وأمام المرآة وقفت الزوجة شاردة، تساعد زوجها في ارتداء رابطة عنقه.. نوح:

- ماذا بك؟

الزوجة:

- لا شيء.

غادرت ديار إلى حجرة ابنتها لتكون عونًا لها في ارتداء ثيابها، وبعد أن فرغت عادت وقد نال منها العبوس:

- أردت أن أخبرك بشيء ما.

نظر نوح إلى ساعته:

- الآن؟!

ديار:

- نعم.. لا بد أن أخبرك به الآن.
- لقد تأخر الوقت، ومن الأحرى بنا أن نغادر حتى لا يلغى الحجز.

وهو لفي ذلك إذ يرتفع صوت الهاتف بالنحيب كطفل أضاع لعبته.. نوح:

- ماذا هناك؟! هل توقف الفضائيون عن غزو أمريكا فقط.. أعني هل قرروا غزو بلد آخر.

صوت ضحك يعلو من الجانب الآخر من الهاتف.. يونس:

- لا.

نوح وقد علا صوته نبرة غضب:

- إذًا.. ما سبب اتصالك في هذا الوقت؟!

يونس:

- لقد توصلت للطريقة.

نوح:

- يونس أنت تعلم أن حديثك به بعض الغموض أحيانًا، وضح كلامك من فضلك.
- لقد وجدت طريقة العبور والنفاذ.. بإمكاننا الآن أن نراهم ونذهب إليهم، وكذلك هم بإمكانهم الآن أن يأتوا إلينا ويتحدثوا معنا.

نوح:

- يونس.. لا جدوي من الحديث معك عبر الهاتف، لدي موعد الآن.. أقترح أن نتقابل غدًا لتوضح لي هذا.

يونس:

- ليكن.

أعاد نوح النظر إلى ساعته، وأمسك بذراع زوجته مبتسمًا:

- عندما نعود أخبريني بكل شيء فكلي أذان صاغية.

داعبت مريم ابتسامة خفيفة، وشرع ثلاثتهم إلى الخروج والدلوف إلى السيارة.

**

وأثناء الطريق ظلَّت ديار في شردوها، لا تنبس ببنت شفة، ولا تفعل شيئًا سوى النظر إلى الطريق الجانبي تارة، وإلى أمامها تارة أخرى، وكثيرًا ما عاودت النظر إلى الخلف لتطمئن على مريم، وزوجها لا يفعل شيئًا سوى القيادة لا ينبس بأي كلمة، ولكنه اجتهد في إيجاد أجوبة لكل ما يطوف في رأسه من تساؤلات حول سلوك زوجته:

"تري ما سبب شرودها المتكرر منذ أن التقينا أول مرة؟! هل من شيء تخفيه؟! منذ البداية لم أرد أن أثقلها همًا لكي تبين لي ذلك.. أردت أن تخبرني هي من تلقائها، دون أن أطلب منها ذلك.. ترى ما الذي تريد أن تبصرني به الآن؟! ولماذا تأخرت كل هذا الوقت حتى تعلمني به.. وهل ذلك هو سبب شرودها المستمر".

***

وأثناء سير السيارة على الطريق، وأمام مدخل إحدى القرى، هدأ نوح من سرعة السيارة وتوقف، وذلك لعبور تلك العربة المستوية التي يجرها حصان، والتي تنهب الأرض نهبًا للوصول إلى مقصدها.

دلفت الزوجة إلى خارج السيارة لترمق سحن الشحاذون الناعسة الكئيبة، وأجسادهم النحيلة البالية، التي اعتراها الجوع ونال منها المرض، جلست الطفلة تلعب بجوار العجوز فوق العربة، وما إن رأت ديار حتى أشاحت لها بيدها وهي تضحك، ثم لكزت العجوز ذا الحواجب الكثة، وأشارت بيدها إلى ديار، ليرمق العجوز الزوجة، وقد التمعت عيناه، واقترب من وجهه ابتسامة خفيفة، ثم عاد إلى شروده وسكونه، ترفع ديار يدها للطفلة لتحييها مبتسمة، وما إن عبرت العربة حتى دلفت إلى داخل السيارة.. قال نوح:

- طوال أربع سنوات خلت وأنا أرى هذه العربة بقاطنيها، تارة مع أصدقائي وأخرى بمفردي، ولم تحيي هذه الطفلة أيًّا منا في أي مرة.. وأردف:
- كم هي تشبهك؟! هل لاحظتِ ذلك؟ الزوجة:
- بعض الشيء لا أكثر.
- يا لك من محظوظة لقد وجدتِ إحدى شبيهاتك الأربعين، من الأحرى لكِ أن تبحثي عن البقية.

ترد الزوجة مبتسمة:

- حسنًا سأفعل.

***

انتهى حفل العشاء سريعًا، وركبت الأسرة السيارة للعودة، ظل نوح يمعن النظر إليها خلسة، يروق له خصلات شعرها المتسايل، التي تداعبها الرياح المنبثقة من حافة الزجاج، جميلة هي.. كأول مرة رآها في ذلك الوادي، لكم أحب ذلك الوجوم الذى بعثر على وجهها، وهي تنظر إلى قناديل السماء التي تنطفئ واحدة تلو الأخرى، تذكر أنه لم يخبرها بذلك الحلم حتى الآن، فقرر أن يُنهي شرودها بالآتي:

- ديار.. وددت أن أخبرك بأمر ما، لم أخبرك به مطلقًا من قبل.

ترد وقد اختلطت كلماتها بضحكة خفيفة:

- عندما أعود إلى المنزل فكلي أذان صاغية.
- دعك من هذا المزاح الآن، أود أن أخبرك بحلم سابق لي.

الزوجة في مرح:

- هل تقصد حلمًا بمعنى هدف تمنيت الوصول له أم حلمًا بمعنى رؤيا تلاعبت بدهاليز عقلك وأنت نائم؟
- أنتِ تعلمين جيدًا ما أرمي إليه.

الزوجة:

- إذًا قص على.

يخبرها نوح وهو يحاول النظر إليها:

- هل تتذكرين أول مرة التقينا فيها؟

الزوجة:

- نعم.. كانت على هذا الطريق، حين ضاعت نقودي.

يضيف نوح وقد زاد بريق عينيه:

- لقد رأيتك مسبقًا، قبل أن أبصرك هنا على قارعة هذا الطريق.

ديار وهي تنظر إليه:

- أين؟

- قبل أن أتطلع إليكِ هنا، رأيتك في حلم لي، حزينة كابية، شاردة كنتِ، تحاولين عد نجوم السماء ليلًا.

- وهل استطعت حصرهم؟

- لا أدري.. أخبرتك أن هذا كان ليلًا، كيف أستطيع أن أرى إذًا؟!

- وأنا أيضًا أردت أن أخبرك بأمر ما، ولكن من فضلك خفف من سرعة السيارة.

- أممم.. ليكن.

وأردف مازحًا:

- اذا أردتِ أن تخبريني بمدي حبكِ لي فأنا أعلم ذلك، هذا لا يتطلب منكِ مزيدًا من التوضيح.

ديار:

- كف عن المزاح قليلًا.

وشرعت ديار في الحديث:

- أرجوك هدِّئ من سرعة السيارة، أريد أن أبدأ في الحديث.

- ليكن.

وهما لفي ذلك، اذ اختلت عجلة القيادة، وراحت الزوجة تجلب ابنتها من المقعد الخلفي لتضمها بين ذراعيها، حاول نوح أكثر من مرة السيطرة على الأمر، والتحكم في السرعة لكنه لم يستطع، حاول استخدام المكابح، ولكن الأمر أصبح أكثر سوءًا، فهوت السيارة، وسرعان ما تلاشت المرئيات وانتشر الظلام.. ظلام مطبق.

****

-٩-

ما قبل العبور

كان النهار قد ارتفع عندما أتى عواد مهرولًا إلى مكان النقطة اللينة الموجودة بالقرب من مدخل القرية، يلهث من فرط ما أصابه من إعياء من كثرة ركضه المتواثب.. توجه بالحديث لنوح وهو يحاول التقاط أنفاسه:

- حمدًا لله على سلامتك يا أخي، فليذهب هذا الطبيب إلى الجحيم.

ثم تنهد جراء ما أصابه من تعب من كثرة الركوض.. وأردف:

- ماذا هناك؟

يتكلم يونس متجاهلًا سؤاله:

- منذ عام 1548م وانطلاقًا من العالم الإيطالي جوردانو براونو حتى وقتنا الحاضر ويتنافس العلماء في تحديد أماكن من يشبهونا.. واسترسل:

- فمنهم من قال إن هذه الأكوان تبعد عنا ملايين الملايين من السنين الضوئية، وآخرون ادعوا أنها بداخل الثقوب السوداء، وأخيرًا -وذلك حسب نظرية الأوتار- أنها تحوم حولنا وإن كنا لا نستطيع رؤيتها فهذا لا ينكر وجودها أمامنا وخلفنا وعلى جانبينا.. ورأيهم هو الصواب كما وجدت.

يتكلم عواد وقد أصاب الحنق وجهه وصوته:

- يا أخي.. طلبتم مني أن أترك عملي، وأن آتي مسرعًا، وقد تفصد العرق من قمة وجهي حتى أخمص قدميَّ حتى تقول لي ذلك؟

يتابع يونس حديثه متجاهلًا كلماته مرة أخرى:

- اتفقنا على أن من يشبهونا يجولون حولنا، بمعني أن هذا المكان في كوننا هو نفسه في الأكوان الأخرى، مع فروق طفيفة أو كثيرة إن وجدت تلك

الفروق من الأساس. واستطرد قائلًا وهو يخرج جهازًا بحجم كف اليد وأنبوبًا زجاجيًّا من حقيبته:

- لا أحد يعلم حتى الآن كم عدد هذه الأبعاد التي لا نراها حولنا، ولنتجاهل هذه النقطة الآن.

ألاح يونس بالجهاز والأنبوب الزجاجي بالقرب من أعين أصدقائه قائلًا:

- وهذان الشيئان هما ما يجعلونا نرى الأبعاد وندركها.

نوح:

- ما هذا؟!

يرد يونس:

- هذا الجهاز يحتوي على يورانيوم جاهز للتفاعل محفوظ في درجة حرارة عالية جدًّا، والجهاز نفسه قادر على تحمل درجات حرارة كبيرة جدًّا أثناء التفاعلات التي تتم بداخله، وهذا الأنبوب الزجاجي يحتوي على كمية لا بأس بها من النيترونات المسالة. وتابع:
- قبل أن أخبركم بكيفية عمل الجهاز دعوني أوضح لكم آلية عمله، في البداية هذا الجهاز يحتوي على ذرات من عنصر اليورانيوم المشع، وكل ذرة من اليورانيوم تحتوي على ٩٢ بروتون و143 نيترون مجموعهم يساوي ٢٣٥ وهى الكتلة الذرية لليورانيوم، فعند إدخال نيترون إلى نواة ذرة اليورانيوم تصبح الكتلة الذرية للنواة هي 236 بدلًا من ٢٣٥، وبالتالي تنقسم نواة ذرة اليورانيوم إلى قسمين بسبب الحمل الزائد عليها، ونتيجة لهذا الانقسام ينتج عنصرين جديدين؛ هما عنصر الباريوم وكتلته الذرية هي 141، وعنصر الكريبتون وكتلته الذرية هي ٩٢، وتصبح الكتلة الذرية للعنصرين معًا هي 141+٩٢ = ٢٣٣، إذًا يوجد ٣ نيترونات ضائعة، هذا النقص عبارة عن نقص في كتلة النواة، وهذه الكتلة ليست ضائعة

ولكنها تحولت إلى طاقة كبيرة جدًّا، وذلك طبقًا لأشهر معادلة في الفيزياء الحديثة معادلة أينشتاين "الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء".

عواد:

- إن هذا الجهاز ما هو إلا قنبلة نووية، لو قمنا بتجريبه هنا لأصبح المكان كالصريم.

يونس:

- ومن هنا جاءت الوظيفة الأخرى للجهاز وهي جعل العملية السابقة تحدث في اتجاه معين وتحت قيود محددة ومضبوطة؛ حتى لا يحدث انفجار كبير كما ذكرت. وأردف:
- تتركز الطاقة الناتجة من العملية السابقة لتخرج من مقدمة الجهاز في هيئة إشعاع شبيه بشعاع الليزر، ولكنه شعاع من ملايين الملايين من الطاقة المتحولة داخل الجهاز، هذا الشعاع من الطاقة يساعد على عمل تشويه في الأبعاد، مما يجعلها واضحة ومدركة، وبالتالي يساعدنا على فتح البوابات، ولكنها لن تظل مفتوحة لمدة طويلة؛ فالبوابات ستغلق بمجرد ضعف قوة الشعاع، أي بمجرد انتهاء ذرات اليورانيوم داخل الجهاز.

ليسأل عواد وقد اتسعت عيناه ولمع بريقهما:

- وهل جربت هذا الجهاز؟

يونس:

- نعم.. ولكن هناك شيء ما لا أفهمه.

نوح:

- وما هو؟

يونس:

- في المرة السابقة التي جربت فيها هذه الجهاز، ظهرت لي فجوتين فقط كل منهما تشبه بوابة كبيرة الاتساع.. إذًا يوجد كونين فقط بالإضافة لكوننا.

يونس:

- لا أعتقد ذلك.

يضيف نوح في شوق:

- لا يوجد وقت لتخمين ذلك، فلنجرب هذا الآن.

ثم نظر إلى عواد:

- عواد أنت صديقي.. أليس كذلك؟

عواد:

- بلى.

- إذًا ستأتي معي.

يسأل عواد في قلق:

- إلى أين؟

- نجوب كونًا آخرَ.

يعود عواد ليسأل في تلعثم:

- أنا! لماذا؟

نوح:

- سأشرح لك عندما نصل إلى الجهة الأخرى من الأبعاد.

ظل عواد يفكر هنيهة ثم قال:

- لم أعرفكما إلا منذ وقت قصير، ومع هذا لا أجرؤ على الرفض.

يربت نوح على كتفه قائلًا:

- إذًا فلنذهب الآن.

وسرعان ما أزال يونس غطاء الأنبوب الزجاجي، وشرع في سكب جزء من سائله في فتحة موجودة أعلى الجهاز، وتأهب لوضع الجهاز على الأرض، ورجع بعض خطوات للوراء وهو يجذب صديقيه للخلف، وسرعان ما ارتفع دخان من الفتحة الأمامية للجهاز تلاه خروج شعاع مائل للحمرة، ليسقط الشعاع على النقطة اللينة

لتنفتح فجوتان كبيرتان إحداهما باهتة بعض الشيء، أعطى يونس ما تبقى من الأنبوب لنوح وهو يقول:

- لا أدري هل تعمل هذه المادة في الجانب الآخر من البوابة أم لا، ولكن ربما تساعدك على العودة.

عواد:

- ولماذا لا يعمل هذا الجهاز على الجانب الآخر من البوابات؟
- كما أخبرتكم سابقًا، فلكل كون من الأكوان ظروفه الخاصة المتمثلة في ثوابته الفيزيائية، فربما على سبيل المثال في الكون الآخر لا يكون الهواء كما في كوننا، فلا يتم التفاعل داخل الجهاز من الأساس.

يسأل عواد في خوف:

- وماذا لو وجدنا الظروف مختلفة عن هنا؟ كيف نعود إذًا؟

يونس:

- في هذه الحالة بإمكانكم الانتظار عند هذه النقطة في الجانب الآخر، وأنا سأقوم بفتح البوابة من هنا بعد أسبوع من الآن وفى نفس هذا الميعاد.

توجه يونس لنوح بالسؤال:

- هل أسبوع كافٍ للبحث عنها؟

يجيب نوح:

- أتمنى ذلك.

يونس:

- إذًا ينبغي لكم الإسراع في البحث.

ثم فتح حقيبته وأخرج منها جهازًا آخر شبيه بجهازه السابق:

- خذ هذا يا نوح ضعه في حقيبتك لتقوم بنفس التجربة من الجانب الآخر من البوابة ربما يساعدك على العودة، أما هذا الجهاز الملقي على الأرض سأنتظر حتى تنخفض حرارته وآخذه معي إلى المنزل.. وأردف:

- تذكر ألا تلمس الجهاز بعد إجراء التجربة مباشرة، دعه يبرد، وقم بعمل التجربة بنفس هذه الخطوات.

وبعد أن ودع يونس كلًّا من صديقيه، أمسك نوح بيد عواد المرتجفة من الخوف، وشرع كلاهما في الدخول إلى البوابة الباهتة، وسرعان ما اختفت الأرض من أسفلهما، وتلاشت المرئيات من حولهما، وذاب الوجود.

****

-١٠-

في مخفر الشرطة

في مخفر الشرطة

جلس الشرطي يحيى في مكتبه، وأمامه جلس معاون النيابة فريد يتبادلون الآراء حول الحوادث التي بزغت بشدة في الآونة الأخيرة، كان يحيى يحاول إشعال لفافة تبغ حينما طرق الباب:

- ادخل.

ينفتح الباب ويدلف منه الخفير سلطان بشاربه الأصفر الكث جراء ما تناوله من المعسل، ولحيته المحلوقة، يرتدي بردة بنية تصل إلى ركبتيه، وغطاء رأس مائل للحمرة، وعلى كتفه تدلت بندقيته العتيقة:

- القهوة يا فندم.

يحيى:

- ضعها على المكتب أيها العجوز.
- تمام يا فندم.

ينصرف سلطان مغلقًا الباب خلفه، تناول فريد القهوة وشرع في رشف الجرعة الأولى منها:

- هل ظهرت أدلة جديدة تبين سبب حدوث تلك الحوادث؟

يحيى في سأم:

- لا، إنها قضايا بالغة التعقيد.

يضيف فريد وهو يضع القدح على المنضدة:

- لا بد من وجود سبب ما لذلك، في البداية لم نعطِ الأمر الأهمية الكبرى لعدم وجود أي وفيات، كانت مجرد إصابات، ولكن الحادث الأخير غير ذلك، لقد توفي أحدهم، ولا بد أن نفعل شيئًا.

يحيى:

- هل علمت أن نوح توعي من الغيبوبة؟

المعاون:

- نعم.
- وكيف كانت أقواله؟

المعاون:

- كالعادة، كأقوال سابقيه.

تمطى يحيى من مجلسه، ودنا بالقرب من النافذة يرمق الشارع المكتظ بماريه:

- لقد فكرت في الأمر كثيرًا، واعتدلت عن رأيي، أن المكابح لا يمكن أن تكون السبب في كل هذه الحوادث.

المعاون:

- وما سبب عدولك على رأيك؟
- السيارات المتضررة في هذه الحوادث متباينة أنواعها، وذات منشأ مختلف، فلا يمكن أن تنتج هذه البلاد المختلفة ذات الإطارات الرديئة، أو تلك المكابح التي تتلف فجأة عند مدخل هذه القرية. وأردف:
- أتفق معك تمامًا بأن هناك شيئًا ما غامض يبصره السائق، شيئًا ما يقسره على زيادة سرعة السيارة، ثم ما يتبع ذلك من عدم قدرته على التحكم بها، ثم الاستخدام المفاجئ للمكابح، وفي النهاية انقلاب السيارة. وتابع:
- وكأن هناك قوة مبهمة تجبره على فعل كل ذلك، قوة لا نعرف كنهها، وإذا أردنا أن نحل تلك القضايا لا بد أن نعلم مصدر تلك القوى.

يتفوه فريد وهو يعدل من وضع قدميه، ليضع واحدة فوق الأخرى:

- ولكن الناس يتفوهون عن انتقام عشيرة من قبائل الجن.

يحيى:

- انتقام!

فريد:

- نعم، قبائل الجن تنتقم من أهل تلك القرية، لقيام شيوخ القرية في الماضي بتقييد كبيرهم وحرقه.

وهما لفي حديثهم ذلك طرق الباب مرة أخرى، يدخل الخفير سلطان ببردته البالية، وغطاء رأسه المنتصب.. يحيى:

- ماذا هناك هذه المرة يا سلطان؟

الخفير:

- هناك وفد من شيوخ القرية بالخارج.

- أي قرية هذه المرة؟

ليميل سلطان صوب يحيى ويتمتم بصوت خفيض:

- القرية التي تجري عند مدخلها الحوادث.

يحيى في كياسة:

- أخبرهم أن يرحلوا؛ فنحن لا نستطيع حمايتهم من الجن.

- لا يا سيدي، لم يأتوا لذلك.

يصيح يحيى في نفاد صبر:

- إذًا.. لماذا أتوا؟

يقول سلطان في توهج:

- غدًا هو مولد الشيخ البوططي، وجميع أهل القرية والقرى المجاورة متأهبون للاحتفال بذلك.

- وأين يكون الأحتفال اذًا؟

- عند مقام سيدنا الشيخ البوطظي في وسط القرية.

يضيف سلطان وهو يسعل:

- لذلك أتى شيوخ القرية لأخذ تصريح إقامة الاحتفال.

التمعت عينا يحيى ونظر إلى فريد المراقب بصمت لما يحدث، نظرة مفادها "هل تعلم فيما أفكر؟"، ثم التفت إلى سلطان:

- سلطان.. هل تعرف أهل تلك القرية؟

يرد سلطان في شفقة:

- وكيف للمرء أن لا يعرف أهله؟!

يحيى:

- دعك من الفلسفة وأخبرني هل تعرف بالتحديد أين يقع المقام في وسط القرية؟

يجيب سلطان في فخر:

- بالتأكيد أعرف.

- إذًا ناولني التصريح.

يناول يحيى التصريح إلى الخفير سلطان بعد أن قام بتوقيعه:

- ستكون رفيقي غدًا يا سلطان.

فريد:

- ماذا تنوي؟

سأذهب للاحتفال بمولد الشيخ البوطظي.

****

-١١-
مراسم الاحتفال
يرويها يحيى

يرويها يحيى

إنها الرابعة عصرًا، بدأت مراسم الاحتفال تدب في القرية، فاكتظت الشوارع بقاطنيها، وبدأ الناس يتقاطرون في جماعات من القرى القريبة المجاورة، وعند المقام بدأ جمع من الناس في تعليق الزينات، وربط أعمدة الإضاءة، ونصب سرادق الاحتفال، ووضع مكبرات الصوت، وعلى بعد أمتار قليلة منهم بدأ آخرون في ذبح الأضحية، وطهي الطعام، وتجهيز الولائم وذلك لتقديمها للناس بعد بدء الاحتفال.

وقد علمت من الخفير سلطان أن الاحتفال سيبدأ في السابعة مساءً، إذًا لدينا متسع من الوقت لنجوب القرية، ونتحرى مقيميها، فقلت للخفير سلطان وقد لاحظت تزايد أعداد الحاضرين:

- ما كل هذه الأعداد يا سلطان؟! كل هؤلاء أتو لحضور المولد؟!

يجيب سلطان:

- مولانا الشيخ البوططي رجل مبروك.. الكثير من سكان القرية والقرى المجاورة يأتون لزيارة مقامه كل عام.

قلت وأنا أجول بنظري يمينًا ويسارًا:

- ولماذا أتى كل هؤلاء؟

يرد سلطان وهو يعدل من وضع بندقيته:

- كما أخبرتك يا يحيى باشا، الشيخ البوططي شخص مبروك، تتوافد الناس على مقامه من كل صوب لنيل بركاته وأخذ عطاياه.

يردف سلطان وهو يرفع يده رادًا التحية لشخص ما:

- منهم من يأتي إلى هنًا تضرعًا طالبًا الرزق، ومنهم من ابتلاه الله بسقم ما، جهل الأطباء عن تشخيصه ومعرفة علاجه، وعندما تضيق بصاحب المرض السبل، يأتي إلى المقام ليلة الاحتفال طالبًا العلاج، لعل بركات مولانا البوططي تشفيه، ومنهم النساء اللاتي لم يحبلن قط، سألين المولي أن يرزقهن...

قاطعته قائلًا:

- قبل أن توضح لي المزيد، أخبرني ما سبب تسمية شيخكم بالبوططي؟

ليجيب سلطان وهو يسعل:

- البوططي هو لقب أطلق على الشيخ سيد إسماعيل خلاف بعد وفاته بـ عشرات السنين، وتقريبًا بعد ثلاثين عامًا من وفاته، كان الشيخ سيد رجل صالح لا يختلف عليه اثنان من القرية، فكان رمزًا للجود والعطاء، ما قصده أحد قط إلا وأعطاه سؤاله، لذا كان محبوب من جميع أهل القرية.

صحت في توجس:

- دعك من كل هذا وأجبني عن سؤالي من فضلك.
- أما عن سبب تسميته بـ البوططي -كما حكي لي أجدادي- أن الناس لاحظوا أن كل طيور القرية وخاصة البط تتجمع حول قبر الشيخ سيد إسماعيل، لم يكترث الناس في البداية لذلك، فالرجل كان دائم الجود بالطعام والماء على الطيور، فظن الجميع أن هذا كله ما هو إلا عبارة عن شكر ورد جميل للشيخ، ولكن بعد أن رأي الناس الطيور وقد بدأت في نبش القبر وحفره بأناملها، أدرك الناس أن هناك شيئًا ما غير طبيعي يقسر الطيور على فعل ذلك.

وتابع:

-وبعد اجتماع عدد ليس بقليل من أهل القرية ومشايخها في منزل العمدة، اتفق الناس -وذلك بعد طول خلاف- على ضرورة فتح قبر الشيخ سيد ومعرفة ما يدور بداخله.. وعند فتح القبر...

صمت سلطان وشرع يرفع يده راميًا السلام على جمع من الناس قد مكثوا على جانب الطريق في انتظار بدء الاحتفال، قلت في أمتعاض:

- لعنك الله يا رجل.. ماذا وجدوا؟!

سلطان:

- وجدوا! أين؟

قلت في نفاد صبر:

- داخل القبر أيها المعتوه.

ليتذكر سلطان وهو يحك خلف رأسه:

- آه.. عندما دخل أهل القرية القبر، وجدوا أن جثمان الشيخ سيد كما هو لما يتأذى، وكأن السنوات لم تمر على وفاته ودفنه، أصابتهم الدهشة بعض الوقت، ثم قطع دهشتهم صوت صدر من بينهم مرددًا "مدد يا سيدنا البوططي"، فأجمع الناس على بناء مقام له في هذا المكان.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. اتفضل يا حج عرفة.

بدأت بوادر المغيب في الظهور، وبدت الشمس حزينة كابية وهي تودع الأفق تاركة كل شيء للظلام، الذي تأهب لفرض قوانينه، وهذا الخفير لا يكف عن إلقاء ورد التحية للمارة والجالسين في الطرقات.. قلت:

- بدا لي أنك محبوب من أهل القرية يا سلطان!

ابتسم سلطان ابتسامة عريضة سنحت لي رؤية أسنانه الصفراء من سطوة المعسل.. أردفت في كياسة:

- ضع في حسبانك أن أحتمالية أن يبني لك مقام قائمة بعض الشيء. أضفت وأنا ألوح بيدي في الهواء راسمًا الاسم:

- مقام الشيخ سلطان.. يا له من اسم!

زادت ابتسامة الخفير، وزاد بروز أسنانه الصفراء:

- إنهم فقط يحبوني بعض الشيء.

- هل تعرفهم جميعًا؟

- كما أخبرتك يا يحيى باشا في المكتب، نعم أعرفهم.

ثم أضاف سلطان وهو يشاور إلى أحد الأشخاص، دون أن يدرك الشخص ذلك:

- فذلك الرجل من قرية تبعد عنا بضعة كيلو مترات، يأتي للمقام كل عام هو وزوجته وابنته التي ندر خطابها، يأتون للتبرك داعين الله أن يعجل استجابة دعائهم، وهذا الذي يرتدي خرقة خضراء عمل كتاجر لفترة كبيرة حتى أصبح من سادة القوم وأعلاهم، وكعادة الزمن الذي لا يترك شيئًا إلا وأهلكه، ففي صباح يوم ما استيقظ الرجل على خبر حريق كبير في مخزنه قد أتلف كل بضاعته، فنزل هذا الخبر عليه نزلة طامة كبري أودت بعقله، وجعلته يتسكع في الطرقات والأزقة غير عالم بجهته. تابع الخفير وهو يشير إلى أحد البيوت:

- وهذا الذي يجلس القرفصاء أمام البيت نال المرض من زوجته وأطفاله الخمسة، ففقد عقله وعدل به الجيران إلى المورستان، ولكنه سرعان ما هرب ليذوب في زحام حفلات الذكر والموالد.

تنهدت وأنا أطبق شفتي في تململ:

- أنت تعلم كل شيء حقًا.

حل المساء بكل أبعاده، وأوشكت مراسم الاحتفال على البدء، وبزغت ألوان أعمدة الإضاءة، وبينما كنت منهمكًا مع سلطان بالحديث حول الاحتفال وقاصديه، إذ بي ألمح عجوزًا متقدمًا في السن، يرتدي خرقة بالية، كث اللحية، وفوق رأسه

استوطن جمع من الشعر المشعث، بدا لي أنه لم يعرف الاغتسال منذ دهر، كان العجوز يصيح بهمهمات غير مفهومة:

- هم يطلبون النجدة، ساعدوهم قبل أن يُقضي عليهم.

نظرت إلى سلطان:

- من هذا الأخرق؟

يرد سلطان وقد تبدلت نبرته إلى حزم:

- ششش.. من الممكن أن يسمعنا.
- من هو اذًا؟
- رجل مبروك يدعي راجح ، والجميع هنا يعلم ذلك.
- اممم.. دعنا نقترب منه لنصغي ماذا يقول.

يقول الرجل المجذوب وهو يحرك يده في أوجه المارة:

- يريدون أن ننقذهم، أن نقدم لهم العون.

يضيف الرجل وقد امتزج صوته بأنين بكائه:

- أرجوكم اذهبوا لهم؛ فهم بحاجة لعونكم.

يسرع الرجل خطواته، ثم يتلكأ بها، ويكمل ضاحكًا:

- أنجدوهم.

أخرجت زفيري وأنا أتحدث إلى سلطان:

- لا أفهم ما يرمي إليه هذا المجذوب.
- لا أحد كذلك يفهم.

سألته:

- منذ متى وهو يرمي بتلك الكلمات؟
- منذ ٦ سنوات تقريبًا وهو يهمهم بها.

لم أتفوه بكلمة أخرى، وظللت أراقب المجذوب حتى تلاشى شبحه في الزحام، وتلاشت عباراته عن السماع.

كان الزحام قد وصل إلى الذروة، وقد تبينت أن شوارع القرية تزخر بالكثير من الأشخاص المغبرين المشعثين، كانت لهم نفس الهيئة، خرق ممزقة تباينت ألوانها، حيك كل تلف فيها بخرقة من لون آخر، اللحي الكثيفة التي لم يطلها مقص منذ دهور، وأجسادًا جهلت طريق الماء والصابون.. وأنا لفي خيالاتي تلك إذ بكتف تصدمني، استدرت برأسي لأري ذلك المعتوه الذي سأحييه بأشنع أنواع السباب، لكنه لم يكن معتوهًا مطلقًا، كان شابًّا في العقد الثالث من العمر، يرتدي سترة مهندمة، ذا أنف أحمر وعينين باكيتين، ربت بيده على كتفي قائلًا:

- معذرًا.

ابتسمت نصف ابتسامة محركًا رأسي لأسفل قائلًا:

- لا عليك .

توجهت بالحديث إلى سلطان:

- من الواضح أنه غريب عن القرية.

يجيب:

- نعم.. ولكن كل القرية تعرفه.

تابعت في السؤال:

- ومن هذا الغريب إذًا؟

ليقص سلطان وهو يتابع شبح الغريب قبل أن تبتلعه الكثرة:

- يدعى سلام.. يومًا ما هاجره أصدقاؤه، ولا أحد يعلم ما الذي دفعهم لذلك، ومنذ أن تركوه لم يمل في أن يبحث عنهم بين الزحام، يتحلى بأطيب ثيابه قاصدًا الأماكن التي تعج بالناس، حالمًا أن يصدمه أحدهم كما صدمته أنت الآن.

لم أرضَ بحديث الخفير، وأطل على وجهي العبوس، ما الذي يدفع المرء إلى البحث عن مَن تركوه؟ أو على الأقل ما الذي يقسره على الانتظار، وهنا قررت

التدخل لإقناع ذلك المعتوه، نعم معتوه لا فرق بينه وبين راجح وأعوانه. فركضت نحوه حتى دنوت منه، وجذبت ذراعه داعيًا إياه للأنتباه:

- لقد تركوك ألا تفهم.. لا يستحقون كل هذا!

يرد سلام وقد امتلأت مقلتاه بالدموع:

- بل يستحقوا.

قلت في نفاد صبر:

- لقد تركوك وحيدًا.. ورحلوا!

يضيف سلام وهو يحاول محو دموعه بطرف سترته:

- ولكنهم تركوا لي ذكرى، تدمع لها عيني، ويخفق لها قلبي، وتبتسم لها شفتاي.

قلت وهو يشيح بوجهه عني طالبًا الرحيل والاستمرار في البحث:

- سحقًا لك أيها الغبي.

يردد في غير كلفة وهو يبتعد دون أن يدير وجهه:

- لست غبيًّا، ولكني أريد أن أراهم.

***

عاودت أدراجي إلى سلطان وأنا أفكر في شيء واحد فقط هو الرحيل، إن لهؤلاء القوم فلسفة لا أقدر على فهم كنهها، ولكن كيف لي أن أعاود أدراجي، وأنا لم أحصل على ما أتيت من أجله.

- سلطان أيها الخفير المسكين تعال.

سلطان في توجس:

- نعم يا بيه.

- هل سمعت عن تلك الحوادث الخمس التي وقعت عند مدخل قريتكم منذ خمس سنوات خلت من الآن؟

- بالتأكيد سمعت عنها.

- هل تعلم أسباب حدوث أيٍّ منها؟

يرد الخفير في ثقة:

- نعم، أعلم سبب وقوع الحوادث الخمس.

قلت في حماس؛ لعل فلسفة هؤلاء القوم تقربني من شيء:

- وما هو السبب؟

قال في كياسة:

- الثأر.

قلت:

- أي ثأر؟

ليرد سلطان:

- ثأر عشيرة الجن من أهل القرية، لأن أجدادنا قاموا بحرق ملكهم.

تعجبت:

- أجدادكم! برأيك لماذا تأخر انتقام العشيرة كل هذا الوقت؟ لماذا لم ينتقموا ممن ضرموا النار في ملكهم؟!

يجيب سلطان وهو يرتجف:

- كان بمقدور العشيرة -بعد حرق ملكهم- إضرام النيران في القرية كلها، ولكنهم أقسموا على أن الثأر سيكون من الأحفاد.

قلت في تساؤل:

- إنك تقول أن ثأر العشيرة سيكون من الأحفاد، أليس كذلك؟!
- نعم.
- وها أنتم الأحفاد.. صحيح؟!
- نعم.

قلت:

- إذًا لماذا لم تضرم العشيرة النار في القرية حتى الآن؟ وعندما تهمد النيران نجد كل أهلها بما فيهم أنت جثث، يتصاعد منها الدخان كما يتصاعد من مدخنة باخرة عملاقة؟

واسترسلت:

- لماذا اكتفت العشيرة بحوادث خمس بسيطة أصيب فيها الكثير؟ لم يمت فيها سوى فتاة واحدة؟

لم ينبس سلطان بشيء، وبدا كأنه قنع بحديثي وحججي، وأردف وهو يشير إلى بيت في آخر الشارع:

- الشيخ عبد التواب بالتأكيد لديه رد لسؤالك.

سألت:

- ومن يكون الشيخ عبدالتواب هذا؟

أجاب:

- الشيخ عبدالتواب هو ابن الشيخ البوطي.

سألت:

- هل تثق به؟

أجاب:

- لا.

سألت:

- إذًا لماذا نذهب إليه؟

أجاب:

- لأن والده ومن معه هم منَ حرقوا ملك الجن.

***

قاربت مراسم الاحتفال على الانتهاء، عندما دلفنا إلى ذلك المنزل، وأمام المنزل راح رجل يرحب بالخفير سلطان في حفاوة لم أشهد مثلها من قبل.. سلطان:

- هل أنتظر دوري؟

يمد الرجل يده لمصافحته:

- بالتأكيد لا.. بمجرد خروج من بالداخل ستدخل أنت يا سلطان بيه.

ثم أشار الرجل بيده صوبي:

- ولكن.. من هذا؟

يرد الخفير:

- صديق لي.

نظرت إلى سلطان مبتسمًا:

- سلطان بيه!

يرتفع شارب سلطان الأصفر اللامع إلى الأعلى في ابتسامة خفيفة، ودلف بنا الرجل إلى غرفة داخل البيت، كان في الغرفة جمع من الرجال والنساء والأطفال، ملت إلى سلطان خافتًا:

- من هؤلاء؟
- هؤلاء من أهل القرية، قد أخافتهم الحوادث الخمس، فأتوا إلى الشيخ عبد التواب ليحميهم من انتقام العشيرة.

قلت في استغراب:

- يحميهم! كيف؟

أجاب الخفير:

- يتلو عليهم تعاويذ وطلاسم تعيق العشيرة من الوصول إليهم.
- لا بد أن محبة الناس لوالده هي سبب كثرة تلك الأعداد؟
- نعم.

سألت:

- ولكنك لم تخبرني في البداية بأن الشيخ البوططي كان متزوجًا.

ليجيب سلطان في ثقة:

- لم أخبرك بذلك لأنه لم يتزوج فعلًا.

أطلت النظر إليه في بلاهة، ثم ملت على أذنه.. وأردفت خافتًا:

- كيف لم يتزوج وله أبن يا عديم الذكاء؟!

أجاب في ثقة:

- بعد أن شيد أهل القرية المقام، جاء إلى القرية شابًا -وهو الشيخ عبد التواب- يقسم بأنه ابن الشيخ البوطي.

- وهل صدقتموه؟

- نعم.

- وما الذي دفعكم لذلك؟

- لأن الشيخ عبدالتواب يشبه شيخنا بعض الشيء.

ثم نظر الخفير إلى الأرض.. وأردف:

- ولكن عبدالتواب يلوث سمعة أبيه.

- كيف؟

يجيب:

- يستغل هؤلاء، ويأخذ منهم المال لحمايتهم من انتقام العشيرة.

أقترب منا الرجل وأخبر سلطان بأن دوره قد حان.. ملت إلى سلطان:

- دعنا ندخل لنتأكد أن عبد التواب هو ابن الشيخ البوطي أم هو مجرد شبه لا غير.

***

شرع كلانا في النهوض والسير، خطي الرجل أمامنا ودلف بنا إلى حجرة أخرى يتصاعد الدخان من كل ركن فيها، وفي منتصف الغرفة جلس شخص أربعيني، طلب منا الرجل أن نجلس بالقرب من مجلس شيخه عبد التواب في منتصف الغرفة، وبدأ سلطان بتوجيه الحديث صوب عبد التواب:

- صديقي هذا يريد أن يسألك سؤالًا يا شيخ عبد التواب.

لم يتحدث عبد التواب، وكأن صمته يخبرنا أن نتابع الحديث، قلت وقد تيقنت أن هذا الشخص ما هو إلا دجال استغل خوف الناس وذعرهم في بناء كهنوته وعالمه:

- جئت لأسأل لماذا لم تضرم عشيرة الجن النار في القرية حتى الآن؟ أردفت:
- علمت أن عشيرة الجن لم تعذب من قاموا بحرق عظيمهم لأن العهد وصي بحرق الأحفاد.

ليتمتم الشيخ عبد التواب:

- نعم.

قلت:

- إذًا لماذا لم تضرم العشيرة النار في القرية حتى الآن بما أن الاحفاد قد حلت؟

قال عبد التواب وهو يرمي شيئًا ما في المبخرة التي أمامه:

- لأني أحمي القرية منهم.

قلت بصوت أجش:

- ولماذا لم تحمِ الطريق؟

قال وقد تصاعد الدخان من المبخرة:

- ومن قال بأني لا أحميه.

قلت وأنا أرمق إضاءة الغرفة الخافتة:

- وماذا عن الحوادث التي تنشأ عليه عند مدخل قريتكم؟
- أخبرتك بأنني أحميهم، والدليل على ذلك الإصابات البسيطة الناتجة عن تلك الحوادث، أي أنه لم يمت أحد منهم في هذه الحوادث.

قلت في أمتعاض:

- وماذا عن الفتاة التي توفيت الأسبوع الماضي؟ لماذا لم تحمِها؟

رد وهو ينظر في المبخرة:

- إنها ليست من القرية.

قلت في نفاد صبر:

- ولكن الحوادث الأربع التي سبقت الحادثة الأخيرة كان من ضمنهم أناس ليسوا من القرية، لكنك حميتهم ولم يموتوا.

ليقول عبد التواب في ثقة:

- لأن هذا قدرهم.

أغبر وجهي، وأزمعت في داخلي أن بمجرد عودتي إلى المخفر، سأصدر أوامري بالقبض على هذا الدجال الذي جمع ثروته من خوف الناس وجهلهم، فنهضت من مضجعي طالبًا من سلطان الماكث جواري النهوض للرحيل، نظرت إلى سلطان وأنا أضم مقبض الباب لأفتحه:

- سلطان.. عندما أدخل مكتبي غدًا ذكرني بهذا الرجل.

يضيف سلطان:

- ليكن سيدي.

****

-١٢-

أكاد أجن!

يرويها الراوي الأساسي

- لا أستطيع أن أجد تفسيرًا واحدًا حتى الآن.. أكاد أن أجن!

أباح بها يحيى وهو يرمق الزرازير التي تصدح من شرفته صباحًا، ثم استطرد وهو يحاول الوصول إلى مقعده:

- لا بد من وجود تفسير لكل ذلك.

ثم واصل وهو يضع رأسه بين يديه:

- آه رأسي سينفجر، يكاد الجنون أن يعتليني!

ليرد فريد مبتسمًا:

- هل عثرت على شيء ما مهم في القرية أمس؟

يمط يحيى شفته السفلى ويضرب إحدى كفيه بالأخرى:

- لا.. ولا أي شيء.

واسترسل:

- لم يكن هناك سوى عدد ليس بقليل من المجاذيب، وقد اعتلت العمم الخضراء رؤوسهم، أحدهم يدعى راجح، وآخر سلام والثالث يفوتني اسمه، جميع من كانوا هناك أمس ذو طوابع غريبة، وأطوار غير مألوفة.

فريد:

- امم.. نحن لفي حيرة الآن، لم يكن الأمر كذلك منذ خمس سنوات عندما وقعت الحادثة الأولى، أما الآن فهناك سيدة توفيت، ولا بد من إيجاد سبب مقنع للوفاة حتى نخبر به زوجها وأقاربها.

يحيى:

- كما قُلت، منذ خمس سنوات كانت هي الحادثة الأولى من نوعها، فبقليل من التفكير عرفنا السبب، أو ادعينا أننا عرفنا السبب، ولكن عندما تتكرر الحادثة خمس مرات وفي كل مرة يملي السائق ما قاله السائقون الآخرون؛ فالأمر هنا يدعو إلى الريبة.

فريد:

- أضف إلى ذلك حالة الوفاة؛ ففي الحوادث الأربع الفائتة كان السائق ومن معه يصابون بخدوش بسيطة، أو بضع كدمات وقلما ظهرت الكسور.

يحيى:

- أهل القرية يتهامسون بانتقام عشيرة من الجن لسلطانهم، بالله عليك كيف تنتقم حاشية قيد عاهلها وحرق، بأحداث هذه الخدوش البسيطة؟! يا لها من عشيرة وديعة لا تأخذ العنف منهاجًا لها!

ثم أطلق يحيى تنهيدة صاحبتها ابتسامة وصاح:

- لقد خلقت أجسادهم من النار، وصنعت قلوبهم من قوالب الشيكولا، وصبغت أوجنتهم باللون الوردي.

واستطرد قائلًا:

- الناس في الخارج يريدون معرفة سبب ذلك، ويرمون هذه المهمة على عاتقنا.

فريد:

- ألم تقل بأنهم أسلموا بأن عشيرة الجن هي السبب؟
- نعم، ولكنهم قلة، ولكن الباقيين ما يرون هذه إلا خرافات، ابتدعها الدجالون لجمع المال.

فريد:

- إذنْ.. دعنا نفكر.

يرتفع صوت طرقٍ على الباب، ويدلف سلطان بمعطفه الرث، ليضع القهوة على المكتب ثم يتأهب للرحيل كعادته، وعند الباب تثاقلت خطواته ليلتفت:

- يحيى بيه!
- نعم.
- لقد طلبت مني ليلة أمس أن أذكرك بعبد التواب صباحًا.
- لا تقلق.. لم يطل النوم جفني أمس، إلا بعد أن أرسلت مجموعة للقبض عليه، وهو حاليًا قابع في السجن إيذانًا بمحاكمته.

عبثت ابتسامة بسيطة على وجه سلطان ثم استدار ورحل.

فريد:

- مَن عبد التواب هذا؟

يحيى:

- دجَّالٌ.. استغل فزع الناسِ من فكرة الانتقام في جمع ثروته.

ليداعب فريد شفته السفلى بيده اليسرى سائلًا:

- لماذا لا يكون عبد التواب نفسه هو السبب في كل هذا؟ أقصد هو من دبر كل هذه الحوادث ليروج لفكرة انتقام العشيرة ومن ثم حماية من يدفع له.

يحيى:

- لقد فكرت في هذا، ولكني وجدت أنه لا أساس له من الصحة، كيف يمكن لعبد التواب تدبير كل هذا، وبفرض أنه استطاع وقام بالاتفاق مع سائقي السيارات في الحوادث الأربع الأولى ليبدو الأمر كأنه انتقام وثأر، كيف يمكن لعبد التواب تدبير هذا مع نوح، لقد أثبتت التحريات أنه لا توجد أي صلة أو سابق معرفة بين نوح وبين أيٍّ من أهل القرية بما فيهم عبد التواب.

واتسع يحيى في حديثه:

- عبد التواب ليس بمقدوره فعل ذلك.. عبد التواب مجرد دجال صـــنع ملكوته من جهل الناس وجزعهم.

****

-١٣-

كون جديد

فرك كلاهما جفني عينيه، وأجالوا بنظرهم عما حولهم، ليجدوا كل شيء كما تركوه منذ ثوانٍ، الطريق الترابي المؤدي إلى القرية، وأشعة الشمس الحمراء التعسة التي تتأهب لتوديع الأفق وقت المغيب.. صاح نوح:

- لنبدأ البحث.

ليرد عواد ببلاهة وقد اتسعت عيناه:

- أي بحث؟!

لنبدأ البحث من مدينتنا.

ليرد عواد في ضيق:

- عن ماذا نبحث؟!

ليجيب نوح وهو يمسك بيد رفيقه:

- سأخبرك بكل شيء في الطريق.

***

وما إن دخل الصديقان المدينة، حتى شرع كلاهما في الطواف بين الشوارع باحثين عن ضالتهم، بدأ عواد في الحديث:

- لماذا لم يأتِ يونس معنًا؟!
- لأنه آثر البقاء ليجد لنا طريقة للعودة.

يسأل عواد وقد احتبست الدماء في وجهه:

- وإن لم يجد؟! سنظل محبوسين هنا؟!
- لا أدري.. ولكني واثق من عودتك لديارك.
- وماذا عنك أنت؟!

لم يجب نوح وظل يوزع نظراته هنا وهناك متمنيًا من الله أن يصطدم بها، أو تنادي هي عليه إذا رأته.

- لماذا نشقي أنفسنا في البحث ما دامت ديار زوجتك؟!

ليرد نوح في عدم فهم:

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أن ما كان علينا أن نجوب كل شوارع المدينة، وأنه لواجب علينا أن نبحث في دارك أنت.

ليصيح نوح منتشيًا:

- إذًا هيا بنا.

***

بخطوات سريعة حاول كلاهما الوصول لمنزل نوح، فبعد أن دلفا من شارع رئيسي إلى عدد من الشوارع الفرعية، وعدد آخر ليس بكثير من الأزقة والشوارع الضيقة وصلا إلى مقصدهم المنشود، وقد لاحظ كلاهما أن هذه المدينة مختلفة بعض الشيء عن مدينتهم في الجانب الآخر، فهنا بعض المنشآت لم تكتمل البناء، والبعض الآخر لا يوجد من الأساس، وقد لاحظ كلاهما أن عددًا كثيرًا من القاطنين بالقرب من منزله ينظرون له في وجوم امتزج بحِيرة بلهاء.. وقد ركض من أمامهم البعض غير مصدقين لما يروه.. صاح عواد:

- لقد كشفَنا هؤلاءِ الناس.. شكوا في أمرنا.. سيأتي العلماء بعد لحظات لا محالة، سنكون فئران تجارب هنا.

وفي أثناء سيرهما إذ لمحا صبيًّا في الثالثةَ عشرةَ من عمرِه، وقد جَفَلتْ عيناه غيرَ مصدّقٍ لما يراه، وعندما شرعوا في التقدم نحوه، بادر الصبي بالهروب، فلحقا به وسأله عواد وهو يمسك به:

- أخبرني لماذا تجري؟! هل نبدو لك كمصاصي الدماء؟

ليتملص الصغير من يده، وشرع في مواصلة الركض والهروب.

نوح:

- يخيل لي أني رأيت هذا الفتي مسبقًا، ولكني لا أستطيع أن أتذكر متى وأين!

استمر الصبي في ركضه حتى وصل إلى أحد البيوت وهو يلهث، دفع الصبي الباب بقدمه لينفتح الباب الموارب، صعد الصبي الدرج وهو يكابد أنفاسه وما إن انتهى حتى دلف إلى غرفة ناحية اليمين، وتعالت أصوات قرعه على الباب.

-مَن بالخارج؟!

ليجيب الصبي وهو يتنهد:

- عمران.. أنا عمران يا عمة.

يرتفع الصوت مرة أخرى من وراء الباب:

- ها أنت إذًا أيها الشيطان الصغير.. ادخل.

ليفتح الصبي الباب وينساب إلى الداخل، ليجد تلك السيدة العجوز متخذة مقعدها أمام المدفئة قاصدًا الدفء، تراقب في وجوم لهيبها الأحمر، وشرعت في حياكة ثوب بيدها، تنظر إليه السيدة وهي لا تزال تحيك ما بيدها:

- أخبرني ماذا كسرت هذه المرة شيئًا أم طفلًا؟!

يرد عمران وهو يتنهد:

- نـ.. نن نـ.. نوح حي!

***

ترتجف يد المرأة، ويسقط الثوب من يدها، وترفع عيناها الباكيتان إلى النار وتقول:

- ألا تكف عن الأعيبك هذه؟!

- أقسم لك يا عمة أنا لا أكذب، وما أخبرك به هو الحقيقة.

واستطرد:

- لقد صرع الناس في الشارع عندما رأوه.

تسأل المرأة:

- وأين هو؟!

يجيب عمران:

- قادم خلفي هو ومن معه.

وما إن انتهى الصبي حتى ارتفع صوت طرق على الباب.

****

- ١٤ -

الأم الثكلى

هبطت السيدة الدرج وهي تمسك بيد الصبي عمران، وبأنفس وجلة مترجلة شرعت في فتح الباب، صاح نوح:

- أمي!

ترتمي السيدة بكامل جسدها تعانق ابنها الوحيد الذي توفي منذ ثلاث سنوات.

***

- لم أصدق حينما أخبروني بأنك توفيت، لقد أتهموني بالكبر والجنون.

خرجت هذه الكلمات من فم الأم، وهي تحاول محو دموعها التي تتساقط كأمطار فصل الشتاء، وبلهجة طفولية تدخل الصبي:

- لقد تهشمت السيارة على الطريق منذ ثلاث سنوات.

ليسأل عواد:

- ومَن كان فيها؟

ليشير الصبي لنوح:

- عمي نوح وعدد من أهل المدينة.

وواصل الصبي بلسان متلعثم:

- لقد رأى الناس ذلك وأخبروا العمة، ولكنها لم تصدق هذا حتى الآن.

يسكت نوح هنيهة، يرمق فيها والدته، وقد بدت أكبر سنًا وأكثر نحولًا:

- أمي وددت أن أخبرك بشيء ما.

***

وعلى لهيب المدفئة الدافئ، سرد نوح لوالدته كل شيء من البداية، قص عليها حياته وحكى لها عن زوجته التي توفيت في الحادث، وعن صديقه يونس الذي اكتشف له طريقة للعبور لعالمهم هذا.. وأخبرها عن سبب مجيئهم هنا.

لم تصدق الأم كلام نوح في البداية، وبدا لها الأمر كأسطورة لا تصدق، لكن سرعان ما تيقنت من صدق كلام ابنها المتوفى:

- لا يهم.. ما دمت معي الآن.

نوح:

- ولكن ينبغي لنا مواصلة البحث، لا بد أن أجدها.
- ابحث عنها كما تشاء، وستكون إقامتكم هنا.. في بيتك.

نوح:

- سيشك الناس في أمرنا يا أمي، إن أبصارهم لم تتركنا منذ دخولنا المدينة.

ترد الأم في استعطاف:

- سأخبرهم أنك ابن عم نوح، وأنك تشبهه كثيرًا.

يتدخل الصبي في براءة:

- وأنا يا عم نوح لن أخبر أحد.. لا تقلق.

تعاود الأم الحديث:

- ولكن أخبرني يا بني.. من هذا الذي معك؟

نوح:

- صديقي عواد جاء معي من كوني.

نظر عواد إلى الأم مبتسمًا، ودنا من المدفئة قاصدًا الدفء.

ظلوا جميعًا يتحدثون أمام المدفئة لأكثر من ساعة، حكت الأم عن مشاعرها عندما تلقت خبر وفاة ابنها، وعن كيفية معيشتها بمفردها، وأن عمران هو الوحيد الذي يهون عليها وحدتها الموحشة، فهو الابن الأصغر لأحد الأقارب، جاء من إحدى المدن المجاورة ليؤنس عليها وحشتها، حينها تذكر نوح هذا الصبي وتذكر رؤيته له مرة في إحدى الزيارات في عالمه.

نوح:

- يجب أن نرحل الآن.

تصيح الأم:

- ولكنها الحادية عشرة ليلًا!

نوح:

- لا يهم.. علينا أن نواصل البحث.

الأم:

- أين؟
- سنستمر في التجول في شوارع المدينة لعلنا نراها.
- في هذا الوقت المتأخر؟
- ولمَ لا؟! وقد رأيتها أول مرة في مثل هذا.

***

وعند الباب مال نوح على الصبي:

- من فضلك اعتنِ بها ولا تتركها.

ليرد الصبي:

- لقد أخبرت أبي بأني أريد أن أمكث وأدرس هنا بجانب العمة، وأن لا أعود للبيت إلا في زيارات متفاوتة أنا وهي.

ابتسم نوح للصبي وتأهب هو وصديق للرحيل، ودعت الأم والصبي الصديقين بأيدي لا تكف عن التلويح ودموع امتزجت بأنين البكاء، عواد في حنق:

- ليتني لم أقترح عليكم فكرة الذهاب للقرية.

نوح:

- وما دخل القرية في كل هذا؟

يرد عواد في غير كلفة:

- لو لم يرَ يونس نقطتها اللينة عند طريقها الترابي لما حدث كل هذا.

تسمر نوح في مكانه وصاح:

- القرية! نعم.. هؤلاء الشحاذون يعرفون مكان ديار، أكاد أتيقن من ذلك.

وقبل أن يستفسر عواد.. استرسل:

- هل تتذكر عندما مرت من أمامنا عربة الشحاذين مكفهري الأوجه؟

يرد عواد:

- نعم.
- كيف كان حال تلك الطفلة التي كانت بجوار العجوز أشيب الشعر؟

يجيب عواد:

- كانت تلعب بجواره، ولم تحرك عينيها عن أرضية العربة.

يصيح نوح:

- تلك الطفلة الصغيرة عندما شاهدت ديار ألاحت بيدها محييًا إياها. ثم جذبت يد العجوز لتلفت انتباهه.. واستطرد:
- علينا أن نذهب إلى القرية الآن.
- ولكن قدمي لا تطاوعني على السير من شدة التعب.

نوح في ثقة:

- إذًا لنجد عربة توصلنا إلى هناك.

****

- ١٥ -

ها قد أتيتم

"ها أنا أكتب إليكِ ثانية، لقد عثرنا -بعد عناء- على عربة متهدمة يجرها حصان، وافق صاحبها بعد إلحاح منا أن يقودنا إلى القرية، جلست أنا وعواد على سطح العربة المستوي، هو لا يكف عن سماع أحاديث السائق التي لا تنتهي، وأنا آثرت أن أنظر لأعلى لكي أرمق نجوم الله المضيئة في سمائه، وهي تتلحق حول القمر، بحثت عنكِ كثيرًا بين النجوم في سماء كوني فلم أجدك، لذا جئت إلى هنا وقد أزمعت رؤيتك.

لقد رأيت نسخة أمي على هذا الكون، إنها تشبه أمي كثيرًا، ولكنها أكثر بهوتًا وشحوبًا.. إني لأتعجب حقًّا من ذلك، جميع من هنا أكثر منا بهوتًا وشحوبًا، إن هذا العالم لغريب حقًّا، لا أحد في عالمي -مهما بلغ به الخيال- يصدق ما نحن فيه الآن، فسبحانَك يا ملك الملكوت! فسبحانك يا من لا علم إلا علمك! لقد قالت الملائكة لربها "سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا".. فما علمنا نحن من علم الملائكة الكرام!

ها هو السائق يعرج إلى الطريق الترابي، أعتذر منك لخطي غير المنمق في هذه السطور، وذلك لأن الأرض من تحتنا نخرة، والعربة لا تكف عن الترجرج، يومًا ما سأجدك، وستقرئين كل هذا، لتعلمي أنَّ الحنين لك يتلاعب بي كما تتلاعب رياح الشتاء بغصن الشجرة، ويجعل قلبي يرتجف كإحدى أوراق الغصن، ولتتيقني بمدي حبي لكِ".

طوى نوح أوراقه عندما دمدم السائق:

- ها هي قريتكم المقصودة.

عواد:

- أين؟ أنا لا أرى إلا باقي الطريق.

أشار السائق بيده:

- هذا الطريق يفضي بجسر، بعده تكون قريتكم المرغوبة.

صاح نوح:

- ولمَ لا تكمل الطريق بنا؟

ليتثاءب السائق:

- لقد تأخر الوقت، ولا بد لي من العودة، فهناك من ينتظرني.

اضطر كلاهما إلى إكمال الطريق سيرًا، وعلى مرمى بصرهم ترامى الجسر المقام على نهر شبه جارٍ، وتعجب كلاهما عندما وجدوا حفنة من الناس عابسي الوجه، جاهمي البصر، قابعين على جانبي الجسر، في أيديهم قناديل مضيئة ينظرون إلى الماء في وجوم، كأنهم يبحثون عن شيء ما، اقترب عواد من أحدهم هامسًا:

- ماذا هناك؟

يرد الرجل في عبوس:

- غريق.
- من هو؟

يفيض الرجل:

- طفل لم يبلغ العاشرة يدعى أقسم.

ثم أشار الرجل -علموا فيما بعد أنه يدعى دندراوي- برأسه إلى رجل جالس بين الجمع الذين ولو وجوههم شطر الماء قائلًا:

- ابن هذا الرجل.

يحدج كلاهما النظر إلى ذلك الرجل، الذي جلس مسندًا رأسه بيده، يرمق الماء بعينين جادت دموعهما، يسأل نوح هامسًا:

- وما سبب غرقه؟

يجيب دندراوي:

- كعادة الصبية في قريتنا.. السباحة في الماء.

نوح:

- سباحة! في هذا الجو القارس.

يجيب الرجل في غير كلفة:

- قلت لك عادة.

دنا عواد خافتًا:

- ومتى غرق؟

يتابع دندراوي في الإجابة:

- مغرب هذا اليوم.

- وهل ستظلون هنا كثيرًا؟

استرسل الرجل:

- النهر شبه جارٍ كما ترى، لذا وزعنا أنفسنا على الجسور التي يساق لها النهر أملًا في سرعة العثور عليه.

تابع دندراوي وهو يُقرِّب قنديله المضيء إلى النهر ليتحقق من شيء ما عالق بأحد أعمدة الجسر المغمورة في النهر:

- ثلاثة أيام كافية لتطفو الجثة على السطح.

ترك دندراوي قنديله المضيء وشرع في النهوض ومغادرة الجمع، ومضى يكمل الجسر سيرًا إلى داخل القرية عندما لحقو به، ليلتفت لهما الرجل:

- أأنتم غريبان؟

عواد:

- نعم.. جئنا من كون...

يقاطعه نوح:

- ش شش ش.. جئنا من المدينة المجاورة نبحث عن عجوز يسكن هذه القرية.
- وما اسم هذا العجوز؟
- لا نعلم.. ولكننا رأيناه مرة أو اثنتين.

وأردف نوح وهو يحاول اللحاق بالرجل:

- رجل عجوز يشارف الستين، كث الشعر والشارب، ذو لحية بيضاء كقطعة سحاب في سماء صافية، وهو واحد من الأفراد الذين يأتون إلى القرية على عربة متهدمة مستوية يجرها حصان قبيل الغروب.

دندراوي:

- وما الجديد في ذلك؟ كل العربات هنا مستوية وتجذبها أحصنة!

أضاف عواد:

- ودائمًا تمكث جواره طفلة لا تكف عن اللهو.

ليصيح دندراوي وقد اتسعت عيناه:

- اممم لقد عرفته.. حيم .

***

شرع دندراوي يغزو شوارع القرية سيرًا، وهو يدع الأرض بعصاه، وشرع كلا الصديقين في اتباعه واقتفاء أثره، لم يتحدثوا إليه، ولم يتكلم معهم إلا ببضع همسات واطئة عن الطفل الغريق، كانت القرية في ذلك الوقت خاوية على عروشها، وكانت شوارعها مظلمة مقفرة تغط في ظلام قاتم، وكان ضوء القمر هو منارتهم السامقة التي لا تضل طالبيها، سار كلاهما خلفه بين البيوت الواطئة التي تأكل جزءًا كبيرًا منها، أما الدهانات فتمكنوا بصعوبة من إدراك بقاياها.

وبجوار أحد البيوت ثمة كلب ينحر، وأسفل تلك الشجرة يوجد قط يبحث عن صغاره، غير ذلك لا تجد أصواتًا إلا عصا الرجل التي تخدش الأرض بلا هوادة، انحرف عواد على أذن صديقه هامسًا:

- أشعر أن الأمور ليست على ما يرام.. ينبغي لنا أن نعود.

ليرد نوح في استغراب:

- نعود! إلى أين؟

يجيب عواد وهو يرتجف كورقة:

- إلى عالمنا.

- ولكن يونس لم يجد طريقة العودة بعد.

عواد:

- يونس! يونس هو السبب في كل هذا، جرب اكتشافه علينا، ألقانا في الفجوة ولم يُلقِ نفسه معنا.

ثم تغيرت نبرته وعلا صوته:

- لقد تبدلت طباعه في الآونة الأخيرة.

توقف دندراوي على حين غرة:

- ستدلفون جهة اليمين، ونهاية هذا الشارع يوجد بيت عجوزكم المطلوب.

وقبل أن يعاودوا السير قال عواد:

- اِذهب أنت إلى حيم بمفردك.

يسأل نوح:

- ولمَ لا تأتي معي؟

يجيب:

- سأزور صديقًا لي.

نوح في تعجب:

- ولكن الساعة الواحدة صباحًا!

عواد في غير اهتمام:

- لا يهم.. المهم أن أرى وجهه في هذا الكون كيف يكون وماذا يفعل.

- ليكن ما تريد.

سار نوح بمفرده إلى منزل ذلك العجوز، وأمام الباب وقف نوح يرمق المنزل في ذهول، وقد بدأ في طرق بابه.

***

بضع طرقات قليلة على الباب بعدها ظهر العجوز بعينين حمراوين من قلة النعاس، ولحية بيضاء كذيل النيزك، رفع العجوز عينه إلى نوح في وجوم، ثم فرك عينيه غير مصدق لما يراه، وحتى يبلغ يقينه أقصاه انساب مسرعًا إلى الداخل، وخرج حاملًا قنديلًا يتصارع ضوؤه على البقاء، وقبل أن يعلق نوح على تصرفات العجوز غير المألوفة، صاح العجوز فرحًا:

- ها قد أتيتم أخيرًا.. لقد طال انتظاري.

****

- ١٦ -

أسرار وغموض

على منضدة تهاوت دعائمها، يضع حيم قدحين ارتفع فوق سطحيهما دخان كثيف دافئ، ناول نوح أحد القدحين ليسأله نوح وهو يُقرِّب القدح من فمه:

- من أنت؟ ولماذا انتظرت قدومي؟

يتناول حيم القدح الآخر، ويشرع في الجلوس:

- انتظرت طويلًا لقدوم أحد منكم.

ابتسم حيم وأردف:

- وها قد أتيتم.
- منذ متى وأنت تنتظر؟
- منذ خمس سنوات.
- لماذا؟

يضم حيم القدح بيده قاصدًا الدفء:

- لكي تنقذونا.

وتابع:

- دعك من هذا الآن، وأخبرني أين البقية؟

- أي بقية؟
- البقية التي عبرت معك الأبعاد عند مدخل القرية؟!

تسأل نوح في دهشة:

- من أخبرك بذلك؟ وكيف عرفت بأمر الأبعاد؟

يصيح حيم في نفاد صبر:

- بحق السماء أخبرني أين هم.

يرد نوح وهو يبعد القدح عن فمه:

- لم يعبر معي أحد، غير صديق لي.

يقطعه حيم وقد نال العبوس من وجهه:

- فقط! ألم يعبر معكم أي أحد آخر؟

وأثناء حديثهم، ارتفع صرير باب الغرفة، وظهر من خلف الباب طفلة صغيرة مبعثرة الشعر، تتثاءب وهي تفرك عينيها بباطن يدها، فيشير لها حيم لكي تجلس على إحدى قدميه:

- هل عادت يا أبي؟

قالتها الفتاة وهي تحاول أن تعدل من وضع شعرها، ليكتفي والدها العجوز بالوجوم والصمت.

أعاد حيم النظر إلى الزائر:

- كانت قريتنا هادئة كباقي القرى والمدن في عالمنا، وكانت الشمس تشرق في عالمي كما تشرق في عالمكم، وغمرت بحارنا وأنهارنا بالمياه كما هو عندكم، وسيقت الريح إلينا كما تساق في كونكم، كانت حياتنا كحياتكم.

نهض حيم من مجلسه حاملًا بين ذراعيه الطفلة التي غلبها النعاس، وأعد لها مضجعًا في أحد الأركان.. وتابع:

- منذ ٢٠ سنة، جاء هؤلاء فنشروا الظلم والقتل، وأشاعوا الجهل والظلام، فسفكوا الدماء، وتصاعد ظلمهم إلى السماء فحجب عنا نورها السماوي، وسيق ظلمهم إلى البحار فأصابها التلوث والقفر.

واستطرد:

- ولما كثر الظلم، واتسع الظلام، واشتد القرب، وفشلت كلُّ محاولاتنا للهروب، وقوبلت طلباتنا للإغاثة بالرفض وعدم التصديق، كان لا بد من طريقة للخلاص من ذلك، وإيجاد وسيلة للنجاة، فعثرت على الثغرة عند مدخل قريتي وفتحت لي بوابتان إحداهما باهتة ضعيفة، والأخرى على النقيض منها، فهي بارزة قوية فأدركت أنهم كونان؛ أحدهم متقدم ذو حضارة، والآخر يعاني سكانه الخمول فاخترت كونكم لأنه الأقوى.

تسأل نوح:

- ولكن.. كيف عثرت على الثغرة؟
- أعلم أنَّ عالمي متأخر كثيرًا عن عالمكم، ولكن الصدفة هي من قادتني إليكم.

تسأل نوح مرة أخرى:

- أقصد ما الذي دفعك للإيمان بفكرة الأكوان المتعددة من الأساس؟

يجيب حيم:

- ذات يوم جاء إلى قريتنا رجل وزوجته ومعهم طفل في السادسة يدعى يونس، جاءوا هربًا من جحيم الغجر في بلدتهم، ولكن سرعان ما لحق بهم الغجر وقتلوا الرجل أمام زوجته وابنه.

نوح:

- ولماذا قتلوا الرجل؟
- لأنه كان من أقوى عناصر المقاومة التي كانت تزيق الغجر ويلات العذاب، فهذا الرجل كان مخترعًا فعكف على صناعة الديناميت والمتفجرات التي استخدمتها المقاومة في ضرب الغجر.

أردف:

- فعلم الغجر بأمره، فهرب الرجل في البداية ولكن سرعان ما لحقوا به وأطرحوه شهيدًا.

نوح:

- كيف توصلت إلى الأبعاد إذًا؟

حيم:

- أنا لم أتوصل إليها، ولكن يونس ابن الرجل هو من عرفها، فبعد أن رأى الغجر وهم يقتلون والده، أقسم على أن يكمل ما بدأه والده، فتعرف إلى

أصدقاء والده وعمل معهم وتعلَّم منهم طريقة صنع المتفجرات وبدع في إضافة أشياء لها لتكون أكثر قوة وأعظم فتكًا. تنهد الرجل واسترسل:

- طالت السنوات وكبر يونس، وأصبح مخترعًا مثل والده وأعظم، فصنع الأسلحة والقنابل للمقاومة، وبدأ في اكتشاف طريقة لنصل إلى العوالم الأخرى ربما نجد منهم من يساعدنا للقضاء على الغجر.

نهض الرجل من مضجعه، وتوجه إلى الركن الآخر من الغرفة، وشرع في إزاحة الغطاء من على صندوق كبير الحجم، ليضيف وهو يفتح الصندوق:

- لقد توصل يونس إلى هذا الجهاز.

نوح:

- ومن أخبرك بأمر الجهاز؟
- لقد كنت أعمل كعامل نظافة في مختبر المقاومة، وفي منتصف إحدى الليالي جاء الغجر بأسلحتهم وأطلقوا الرصاص على كل من كان بالمختبر بما فيهم يونس.
- وأين كنت أنت إذًا؟
- كنت في طريقي للمختبر حين سمعت صوت الرصاص فاختبأت أراقب المشهد من بعيد، وبعد أن غادر الغجر، هرعت إلى المختبر لعلي أجد أحدًا منهم ما زال يتنفس فأستطيع مساعدته، ولكن شتان ما بين الواقع وما تمنيت، فوجدتهم على الأرض لا أحد منهم يتنفس، ووجدت كلَّ شيء محطمًا، فعاودت أدراجي إلى الباب وقبل أن أغادر سمعت أحدهم يهمس باسمي فأسرعت إلى مصدر النداء فوجدت يونس يحتضر، فعزمت على حمله لأقرب نقطة طبية لنا، ولكنه رفض وأخبرني أن الأوان قد فات، وطلب مني أن أحضر الجهاز من المخزن، فأحضرته سريعًا، فأخبرني

يونس كلَّ شيء عنه وعن طريقة عمله، وطلب مني أن أجربه وأن أعبر إلى الناحية الأخرى من الأبعاد أطلب العون.. وتابع:

- من هنا بدأت رحلة بحثي عن هذه الأكوان، فقادتني الصدفة إليكم.

واستطرد:

- مات يونس قبل أن يرى جهازه يعمل، مسكينة هي والدته توفي زوجها وابنها، إنها تعاني في منزلها، وكثيرًا ما وجدها النساء وهي تحدث نفسها وتندب طامتها.

نوح وهو يعدل من مجلسه:

- وبعد؟!
- في البداية حاولت أن أعبر أنا البوابة، ولكنها رفضت عبوري كلما حاولت.

نوح:

- لأن شبيهك حيٌّ في عالمي، لذا رفضت الثغرة عبورك.

تابع حيم:

- جالت في خاطري فكرة وهي أن ألفت انتباهكم إلينا وأشد أبصاركم لنا، وذلك عن طريق عمل بعض التشوهات داخل البوابة المفتوحة في عالمي.

يسأل نوح:

- وكيف تلفت هذه التشوهات انتباهنا إليكم؟
- تعمل هذه التشوهات على خلق خلل بسيط في الأبعاد من الناحية الأخرى من البوابة وينتج عن هذا الخلل ضعف أو قوة الجاذبية في المنطقة التي تحوي الثغرة.

وهنا زاغت عينا نوح وبدأت مجموعة من الأفكار في التزاحم داخل عقله، وبدأ في تجميع بعضها ببعض وربط كلٍّ منها بالآخر، وبعد أن انتهى من ذلك شرعت عيناه بالاحمرار، وامتلأت مقلتاه بالدموع، وصاح بصوت اختلط به الحزن والغضب وهو يندفع نحو العجوز ماسكًا إياه من ياقتي ثوبه:

- أنت من قتلتها!

يرد حيم وهو يحاول التملص من بين يديه:

- من؟ أنا لا أفهم شيئًا من حديثك.

وعلى صوت هذه الجلبة تنهض الطفلة من مضجعها وهي تفرك عينيها المفعمتين بالنعاس، ينظر الرجلان إليها وقد تيقنا بأنهما السبب في قطع نومها الواهن، ولكن الأمر له من الأهمية ما يفوق ذالك، ليتكلم نوح تاركًا العجوز الذي حاول التملص ولم ينجح في ذلك:

- لقد قتلتها بأفعالك تلك.

يسأل حيم وهو يعدل من وضع ياقته:

- مَن؟!

ليرد نوح وهو يحاول التخلص من دموعه التي تزاحمت في مقلتيه:

- زوجتي ديار.
- ولكن كيف ذلك؟

وبدأ نوح في الشرح:

- منذ خمس سنوات وعلى ذلك الطريق في عالمي بدأت مجموعة من الحوادث في الظهور، لم ينتج عن هذه الحوادث أي وفيات حتى الحادث الأخير، كان الركاب يصابون لا أكثر، اختلف الناس في تأويل سبب تلك الحوادث فمنهم من اتهم الجن، والآخرون ألصقوها بالسيارات رديئة الجودة وبالمكابح سيئة الصنع، إلى أن جاء الحادث الأخير نجوت أنا وابنتي وتوفيت زوجتي.

بدأت علامات الحزن والدهشة تنال من وجه العجوز:

- صدقني لم أكن أقصد كل ذلك.
- أعلم.. هي حماقاتك لا أكثر.
- حمدًا لله أنك أتيت لترى بنفسك كم أنَّ الوضع مأساوي!

ليصيح نوح وقد ارتفع صوته:

- أنا لم آتِ لأرى شيئًا.
- إذًا لماذا عبرت الثغرة؟
- لأبحث عن زوجتي، أو أرى نسخة زوجتي في عالمكم.
- ولكنها توفيت!

يوضح نوح:

- توفيت في عالمي، ولكنها لا تزال تتنفس في عالمكم.

يسأل حيم:

- ولماذا جئت إليَّ أنا على وجه الخصوص؟

أشار نوح إلى الفتاة الناعسة:

- في عالمي، عندما رأت فتاتك زوجتي أشارت إليها، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامات عريضة، فأتيت إليكم لظني أنكم تعرفون شيئًا عن زوجتي التي في عالمكم.
- إذًا لم تأتِ لتنقذنا؟

قالها حيم وقد قطب حاجباه.. ليرد نوح وهو يلوح بإحدى يديه:

- أنا لا أعلم أي شيءٍ عنكم.. فكيف لي أن أنقذكم؟
- إذًا ضاعت سنون انتظاري هباء؟!

كان شبح الظلام يحوم بالغرفة، يصارع النور الباهت المنبعث من القنديل الموضع فوق المنضدة، وأجال نوح ببصره داخل الغرفة، وتسمر بصره على إحدى الصور المعلقة في أحد الحوائط، وظل يمعن النظر فيها لأنها لم تكن مكتملة الوضوح بفعل الظلام، نهض نوح من مجلسه وقد تناول قنديل الضوء ليميز ذلك الشيء، اقترب نوح من الحائط وقد اتسعت عيناه:

- ديار!

يقطع حيم دهشته:

- إنها ابنتي.

نوح:

- بل هي مَن جئت لأبحث عنها.

***

رمق العجوز الصورة في وجوم وبدأت دموعه في التكدس والاحتشاد داخل مقلتيه، ووضع كلتا يديه على رأسه، وشرع في النحيب:

- يا لمصيبتي.. يا لشقائي أنا من قتلت ابنتي.

- ابنتك؟!

يدمدم العجوز وهو يحاول إيجاد نقطة اتزان قبل أن يسقط:

- نعم.. قتلتها بحماقاتي.

تسأل نوح في حيرة:

- إذًا لماذا أتت إلى عالمنا؟

يوضح حيم:

- بعد أن فشلت كل محاولاتي للعبور لكم، وفشلت أيضًا كل محاولاتي لشد انتباهكم، لم يكن لدي سوى خيار أخير وهو أن أعثر على شخص أحاول إقناعه بعبور الثغرة، لذلك طلبت ابنتي مني أن تعبر هي، رفضت في البداية ولكن مع إلحاحها الشديد وازدياد الأمر سوءًا قبلت أن تحاول هي العبور، داعيًا من الله أن ترفض الثغرة عبورها كما رفضت عبوري، ولكن إرادة الله فوق كل شيء فنفذت ابنتي إلى عالمكم.
- ولماذا لم ترسل أحدًا غيرها؟
- حاولنا إبقاء الأمر سرًا؛ حتى لا يعلم الغجر مكان البوابة وكيفية عبورها فيحرمونا من مساعدتكم لنا.

وتابع:

- فكانت الخطة أن تعبر هي، وتحاول أن تجد شخصًا فتحاول أن تكسب ثقته، ثم تحكي له عن سبب وجودها هناك.

دمدم نوح ببعض الكلمات، وشرع في النهوض... حيم:

- إلى أين؟
- أبحث عنها في مكان آخر.
- ومن ينقذنا؟
- أتيت لأبحث عن زوجتي، لم أضع في خططي أن أنقذ أحدًا.

حيم:

- زوجتك! زوجتك هي ابنتي التي نفذت إليكم لكي تنقذونا.. ليتك شجاع مثلها.

***

أخذ نوح يفتح الباب، وينساب بجسده إلى الجانب الآخر:

- حاولو أن تساعدوا أنفسكم.

العجوز في مرارة:

- حاولنا مرارًا ولم نستطع.
- إذًا يوجد مشكلة في محاولتكم.
- نعلم، ونريد من يساعدنا في حلها.
- لسوء الحظ.. أنا لا أستطيع.

أخذ نوح يسير في الشارع المظلم الذي خلا من مظاهر الحياة، محاولًا تخمين طريقة العودة، ووجد عواد متكئًا على إحدى العربات الصدئة:

- لماذا تجلس هنا؟

عواد:

- أنتظر عودتك.
- كيف وجدت صديقك هنا؟
- لم أجده من الأساس، وأنت هل وجدت ضالتك؟
- لا.

تسأل عواد:

- إذًا ماذا نفعل الآن؟

يرد نوح في ثقة:

- نعود إلى عالمنا، لنخطط للعثور عليها في مكان آخر.

****

-١٧-

الغجر

طلبًا للعودة.. استقل الصديقان إحدى العربات رديئة الإطارات، والتي تكابد للعثور على نقطة اتزان.. أخرج نوح قلمه وبدأ في الكتابة.

"ها أنا أكتب إليكِ مرة أخرى، لأخبرك بمعرفتي للسر الذي طالما أخفيته عني، لست غاضبًا منكِ لدفنك هذا الأمر، بل أحببتك لسعيكِ إنقاذهم، آه لو ترين تلك النجوم الساطعة في السماء، لكم هي بارزة! ولكن ما يحزنني حقًّا أنها تنطفئ واحدة تلو الأخرى، كأن كلًّا منها أرسل لمهمة وعند انتهائه شرع في الانطفاء والعودة إلى سكونه الأزلي، أعلم أن نجمك لم ينطفئ بعد، فهو أكثرهم وضوحًا وسطوعًا، وها أنا أعدك أن يظل ينير الأفق أبد الدهر، لا ينطفئ أبدًا".

وهو لفي ذلك إذ يرتفع نحيب رجل أربعيني، تآكل نصف شعره، واختفت معظم لحيته، يسمى توغان وهو أحد سكان القرية، جلس بجواره -على العربة- طفل صغير يرتدي سترة نقشت عليها صورة رجل ما، ربت نوح على كتف الصبي:

- هل أستطيع مساعدتكم؟

يرد توغان بصوت متحجرش:

- أنت لا تقوي على مساعدتنا.

ثم صمت هنيهة وأضاف:

- سحقًا لهؤلاء.. لقد قتلوا زوجتي وأخذوا ابنتي.

- مَن هم؟!

صاح توغان في غضب:

- من هم؟ أنت حتى لا تعرفهم، فكيف تساعدنا؟

وتابع بعد أن خفض صوته:

- لا بد أنك غريب عن هنا؟

صمت نوح هنيهة، ثم أخذ يرمق سترة الصبي سائلًا:

- من يكون هذا؟

يرد والد الصبي:

- لا تعرفه؟! إذًا أنت غريب فعلًا عن هذا العالم.

توغان:

- إنه القائد بورهام.. تجمَّعنا حوله وقاومنا هؤلاء لسنين، قتلنا منهم البعض، وشتتنا شمل الآخر، أذقناهم الويلات، وعندما شارفنا على الانتصار والنيل منهم، أدركوا أن بورهام هو مصدر قوتنا، نستمد طاقتنا من شجاعته وخلاصه، لذا عزموا على التخلص منه وسرعة القضاء عليه، وقد كان.

أضاف وهو يراقب الطريق:

- في صباح يوم ما وجدنا النهر يجري حاملًا جثمانه إلى الشاطئ، أصابنا اليأس بعد موته، ونال منا القنوط، فضعفت قواتنا، وبعثر شملنا، وأزاقنا الغجر أمر الهزائم.

تنهد الرجل وأردف:

- احتلوا أرضنا، وسخرونا للعمل كعبيد معهم، وحتى لا يأتي من يقاومهم يومًا ما قتلوا الصبية من الأولاد والبنات وطعنوا الحوامل واغتصبوا النساء.. لقد قضوا على كلِّ شيءٍ ونهبوا أي شيء.

نوح:

- ومن أين أتي هؤلاء؟

يجيب الأربعيني:

- من الشمال، فهناك نشأ هؤلاء وكوَّنوا جيوشهم.

نوح:

- وأين هم الآن؟ أنا لا أرى أحدًا منهم؟
- يأتون مع كلِّ صباح ويغادرون بداية كل ليل، لا يتركون لنا سوى الظلام.

دنا نوح من سترة الصبي ليتأكد من ملامح الصورة فجحظت عيناه وقال في نفسه صاعقًا:

- يا للسماء! إنه هو.. بالتأكيد هو.

***

أشار نوح إلى سائق العربة لكي يقف، وشرع يوقظ صديقه الذي غلبه النعاس، فنزل كلاهما، وانتظروا هنيهة حتى اختفت العربة عن أنظارهم.. أحال نوح ببصره عما حوله ليتأكد خلو المكان، ونظر إلى عواد مبتسمًا:

- هؤلاء الناس يشبهونك كثيرًا يا أخي.

اكتفى عواد بالابتسام، أخرج نوح الجهاز من حقيبته، ودس يده في جيبه ليخرج الأنبوب الزجاجي وشرع في سكب السائل في فتحة الجهاز، ليعاود إظهار الأبعاد:

- نرجو من الله أن يعمل هذا الآن.

ترك نوح الجهاز على الأرض وخطا هو وصديقه بضع خطوات للخلف، وسرعان ما ارتفع صوت الجهاز، وخرج شعاعه لتعاود البوابتان في الظهور، أشار عواد إلى واحدة منهم:

- هذه هي خاصتنا.

يمر كلاهما بداخلها، تاركين الجهاز خلفهما، وسرعان ما ذابت أجسادهم، واختفت الأرض أسفلهما، وتلاشى الوجود حولهما، وعاودت المرئيات على الاختفاء مرة أخرى.

****

-١٨-

كون آخر

تصاعدت أنفاسهم، وأجفلت قلوبهم، وفتحوا أعينهم ليجدوا أنفسهم في عالمهم، ذات الطريق وذات البنايات كما تركوها منذ يومين، وشرعوا في الذهاب إلى غرفة يونس، ليفتح الباب ويدعوهم للدخول بعد أن طال في الترحيب بهم والاطمئنان عليهم وعناقهم:

- حمدًا لله على سلامتكم.

عواد مبتسمًا:

- كنت أفتقد عويناتك تلك.

يونس:

- كيف كانت رحلتكم؟

يرد نوح:

- لقد وصل التقدم في عالمنا إلى أقصاه، اكتشفنا الكواكب والمجرات التي تبعد عنا ملايين السنين، وأدركنا أسفل نقاط المحيط، وامتلكنا علاجًا لمعظم الأمراض، لكن صدقني ما زلنا نجهل الكثير.

يونس:

- لقد توصلنا إلى أجزاء صغيرة من الحقيقة، لكن الحقيقة كاملة لا يعلمها إلا الله.

تنهد يونس وأردف:

- يبدو أن رحلتكم كانت شاقة، فلنذهب لنسترح.

نوح:

- لا.. لا بد أن نعبر البوابة الأخرى.

سأل يونس:

- لماذا؟

عواد:

- لم نجد ضالتنا في البوابة الأولى.

يونس:

- دعوا ذلك ليوم آخر.

نوح:

- لا.. بل الآن.

استراح ثلاثتهم للأكل واحتساء الشاي، وما إن فرغوا من ذلك حتى حمل يونس جهازه ودس في جيبه أنبوبًا زجاجيًّا به المزيد من النيترونات المسالة، وتأهب ثلاثتهم للذهاب إلى الطريق، وعند مدخل القرية وضع يونس الجهاز على الأرض وسكب سائله، ففتحت البوابات، أشار نوح إلى البوابة الأكثر سطوعًا:

- هذه هي مقصدنا.

أمسك نوح بيد صديقه وشرعوا في العبور، فانسابت ذراته داخل البوابة، واختفت الأرض أسفله، وذاب الوجود حوله، وعلى النقيض كان صديقه؛ فالبوابة رفضت عبوره وظل هو ويونس ينظر كل منهما إلى الآخر.. عواد:

- لماذا رفضت البوابة عبوري؟

يونس:

- لا أعلم.

عواد:

- ولكن هل نترك نوح وحيدًا؟

يونس:

- لقد اختفت البوابة ونفد اليورانيوم من الجهاز، أحتاج إلى بضعة أيام لتحضير غيره.

- ولكنه لم يقدر على العودة، هل سيحبس هناك؟
- لا تقلق يا أخي سيكون بخير.. دعنا نستريح الآن، وغدًا تشرح لي كل ما رأيتم.

***

فتح نوح مقلتيه، وتحسس الأرض بقدمه، ووضع رأسه في كفتي يده لتخيف ذلك الألم المصاحب للصداع، لم يجد صديقه حوله، فعرف أنه لم يعبر لأنه حي في هذا الكون لذا رفضت البوابة عبوره، وببضع خطوات خفيفة سار، وفي عقله دارت أسئلة عن "لماذا هذه البوابة عبورها شاق؟"، وتعجب من أن البوابة الأولى لم تكن هكذا، وعن هذه المباني الشاهقة أيضًا، وسأل أيضًا عن مكان القرية؛ فعرف أن هذا المكان أكثر تقدمًا وإشراقًا من عالمه، وأن المباني متوسطة الطول حلت بدلًا منها ناطحات شاهقة الارتفاع، وأن الناس هنا يقلون التلفريك، بدلًا من قيادة العربات التقليدية.

وبعد طول سير، وصل إلى منطقة سكنية مكتظة، أعلمه حسه أنها القرية، ولسوء حظه لا يملك صورة ليحيى حتى يبحث عنه، فأخرج من سترته صورة صغيرة لزوجته وظل يسأل المارون عن صاحبة هذه الصورة.

ظل على هذا المنوال قرابة الساعتين، يسأل هذا، ويستشير ذاك، ويستعطف آخر، هذا يرد لا أعرف، وذاك يصيح لا أعلم، وآخر يعرض وجهه دون أن يدلي بأي إجابة، نال منه اليأس، فاقترح في نفسه أن يسترح على مقعد وضع على جانب الطريق، على أن ينهض ليعاود البحث من جديد.

- يا لهذا التسيب! لقد تأخرت الحافلة ثلاث دقائق.

أفردها رجل خمسيني ثمين، يتكئ على عصاه وهو يتأهب للجلوس، توجه إليه نوح مبتسمًا:

- تتذمر لأن الحافلة تأخرت ثلاث دقائق! في بلدي تتأخر الحافلة ثلاث أيام ثم نحمد الله على قدومها.

أردف الرجل:

- معذرة، هل أنت غريب عن هنا؟
- نعم.. ولكن كيف عرفت ذلك؟

الرجل:

- لونك باهت عنا.

نوح:

- آآ.. لم أتناول طعامي منذ ثلاثة أيام.
- فليذهب هؤلاء الأطباء إلى الجحيم، أخبروني مرارًا أن لا أتناول وجبة العشاء قبل أن أنام حتى لا يتوقف قلبي، ولكني لا أستمع إليهم على الإطلاق.

تابع وهو يجد صعوبة في التنفس:

- هم مثل الديكة لا يتوقفون عن الحديث وإعطاء النصائح، ولا تتوقف أيديهم عن الكتابة مثل موظفي الحكومة.

التقط الرجل أنفاسه في جهد وأكمل:

- أنصحك ألا تستمع لهم، تناول طعامك يا أخي، حتى يختفي بهوت وجهك وتصير مثلنا.
- ليكن.

سأل الرجل:

- ما هذه الصورة التي في يدك؟

نوح:

- إنها صورة أأأ...

قاطعه الرجل وهو يتناول الصورة من يده:

- مسكينة هذه الفتاة، لقد توفي زوجها الأسبوع الماضي.
- هل تعرفها؟
- كيف لا أعرفها وهي تسكن الطابق الأعلى من البناية التي أمكث فيها.

يمسك نوح بيد الرجل:

- إذًا دعنا نسرع إلى هناك.

طرقات خفيفة كانت كافية لتقف ديار خلف الباب، نحيفة شاحبة ترتدي (ساري) أسودًا، لم يزدها هذا كله سوى جمال، تضع يدها على مقبض الباب وتتأهب لفتحه:

- السلام عليكم.

ظل نوح يحدق بها لفترة ، واحمرت أنفه، واستعدت مقلتاه لنزف الدموع، إنها هي، جميلة كما كانت، أقل سطوعًا عما كانت ولكنها ما زالت منارة لمن ضل طريقه واهتدى بها، نعم إنها هي بعينيها السوداوين النافذتين إلى صميم القلب، لو رآها المجاذيب لشدوا الرحال إليها، إنها هي بشعرها الأسود كسواد ليلة حالكة الظلمة، ولونها المائل للبياض كلون سحابة شابها بعض الغيوم، لو أحبها الجميع كما أحبها هو لاكتظت مستشفيات الأمراض العقلية بساكنيها، زادت عينه احمرارًا، وشارفت دموعه على الجريان.

ديار:

- لا بد أنك صديقي زوجي المتوفي.. تفضل.

انسابت قدماه إلى الداخل، وعلى أريكة حديثة الصنع ارتمى بجسده الخائر، وأتت هي بعد لحظات وهي تحمل قدحين من القهوة وشرعت في الجلوس في المقعد المجاور:

- لقد كان رحيل عواد طامة كبري لنا.

أجفل نوح ورفع بصره بسرعة إليها:

- مَن؟!

- عواد زوجي.. لقد كان رحيله صدمة كبرى لنا.

يجول ببصره إلى الحوائط الأربع، ويجد ضالته التي يبحث عنها، إنها صورة زفاف ديار وصديقه عواد، لم يطل في ذلك كثيرًا، لطالما دق الاندهاش بابه منذ بداية رحلته، وتيقن أن كل شيء ممكن بعد العبور من هذه البوابات.. تسأل الزوجة:

- هل أنت صديقه؟
- نعم.. صديقه المقرب.
- ولماذا تأخرت عن الحضور وتقديم واجب العزاء؟

ثم عادت تقول:

- معذرة، أعلم أنها مسئوليات الحياة.

ثم عاد ليصدمها:

- زوجك صديقي المقرب في مكان آخر.. ليس هنا.
- أنا لا أعي شيئًا، ألم تأتِ لتقديم واجب العزاء؟
- لا.

عادت ديار للسؤال:

- ولما أتيت إذًا؟. وما هذه الدموع التي تملأ مقلتيك؟

يرد وقد شاب صوته نبرة من حزن:

- أتيت لأبحث عنك.

وتابع:

- سأشرح لكِ كل شيء، ولكن قبل أن أقص عليكِ ذلك، يجب أن تعلمي أن وجهي أكثر بهوتًا عنكم لأني لست منكم، بل أتيت من مكان آخر.

وبدأ في الشرح والتوضيح:

- عندما رأيتك للمرة الأولى في عالمي كنتِ تبكين على ضياع نقودك، وبعد مرور أقل من ستة أشهر تزوجنا.. كانت حياتنا سعيدة ووهبنا الله بابنتنا

الأولي مريم، هي الآن في عالمي تنتظرك.. وفي يوم ما تعثرت بنا السيارة فعشت أنا ومريم وتوفيتِ أنتِ.

ارتسمت علامات الحيرة على وجنتي ديار، وظلت تستمع لحديث الضيف في وجوم.. تابع نوح:

- علمت من صديق لي أن هناك عوالم أخرى، تحوي نسخًا مختلفة منك، وأنكِ حية على أحد تلك العوالم، وأنه توصل إلى طريقة للعبور والنفاذ إلى تلك العوالم، فكنت أول زائر من عالمي إلى تلك العوالم التي لا نعرف عددها.

وأضاف:

- بحثت عنك في أحد العوالم قبل أن أتي لعالمكم، كانوا سكان هذا العالم أقل بهوتًا منا، بحثت عنك كثيرًا هناك لأكتشف أنكِ رحلتِ إلى عالمي تطلبين الإغاثة لتنقذي عالمك، وعرفت أن نسختك في هذا العالم الباهت -التي رحلت إلى عالمي- هي نفسها زوجتي التي توفت في الحادث.. فعزمت على الرحيل من هناك لأستمر في البحث عنكِ في مكان آخر.

وتابع:

- طلبوا مني أن أظل معهم، لأساعدهم في أن أكمل كفاحك معهم، لكني عدت إلى عالمي وعبرت عبر البوابة الأخرى لأجد نفسي هنا.

ديار:

- تريد مني أن أصدق كل هذا؟
- أنها الحقيقة... أقسم لك بأنني لم أتفوه بغيرها.

ثم مد يده في جيبه أخرج مفكرته وناولها إياها:

-اقرئي هذا، كتبته أثناء رحلتي للبحث عنك.

ظلت ديار تتصفح الأوراق لدقائق، تتمعن النظر في بعضها وتتجاهل أخرى، وتجفل عند أخرى:

- لقد قرأت شيئًا مشابهًا لرحلتك في كتاب لصديق زوجي.

صاح:

- يدعى يونس.. أليس كذلك؟
- كيف عرفت؟

نوح:

- إنه صديقي الذي توصل لطريقة العبور، هل تصدقيني الآن؟
- نعم... ولكن لماذا لم تساعدهم؟
- كان كل همي أن أعثر عليك.

ديار:

- لو كانت زوجتك على قيد الحياة لما كفت عن مساعدتهم.
- أعلم هذا.

ديار:

- ضحت بنفسها من أجلهم، وأنت لم تحاول أن تساعدهم من الأساس؟!
- ولكنهم ليسوا من قومي؟
- لا.. هم من كونك، هم نفس أهلك وجيرانك، حتى وإن اختلفت مصائرهم ولكنهم نفس الأشخاص.

حاولت أن تعدل من وضع ساقيها وتابعت:

- إذا أردت أن يبقي نجمها أكثر سطوعًا فاذهب وحقق أمنيتها الأخيرة.. اذهب وساعدهم.

***

كعادتها على التأثير والإقناع، خرج من حديثه معها مهزومًا، لطالما تبددت حججه مع تحرك شفتيها، فأدرك صحة قولها، وشرع في النهوض من مجلسه عازمًا على العودة لتقديم يد العون لهم، تحسس مكان الأنبوب الزجاجي في جيبه فلم يجده:

- يونس!

تسألت ديار:

- ماذا هناك؟

- نسيت السائل مع صديقي يونس قبل أن أعبر.

- أي سائل؟

يجيب نوح:

- السائل النيتروني الذي يظهر البوابة.

وتابع:

- حتي وإن وجدت السائل لا بد أن أجد الجهاز.

واستطرد:

- لقد حبست هنا في عالمكم.

ديار:

- قم بتحضير السائل، وصنع الجهاز، سأوفر لك كل المواد المطلوبة.

- لا أعلم طريقة التحضير.

وتابع:

- صديقي يونس فقط من يعلم.

ثم صاح في ثقة:

- نعم يونس.. اذا أردنا الحصول على الجهاز و السائل فلنعثر على يونس.

ديار:

- لا نحتاج للعثور عليه، فهو يسكن إحدى البنايات في الشارع المجاور لنا.

- إذًا فلنذهب إليه، ونشرح له الموقف، ونأخذ السائل.

- ولكنه شخص سيء السمعة ذو نفوذ عالٍ.

وتابعت:

- شخص جشع، لا يشغله سوى جمع المال، لو علم بقدومك من عالم آخر، أو حتى رأى بهوت وجهك، لأمر أتباعه بالقبض عليك، لتكون فأر تجاربه الجديد.

سأل نوح:

- إذًا، وما الحل؟

ديار:

- اذا أردنا الحصول على السائل فلنسرقه.

- !

ديار:

- لا وقت للدهشة، اذا أردت تحقيق أمنية زوجتك فلنسرع.

- أنتِ وزوجتي نفس الشخص؟

ديار:

- وهذا ما يحمسني للسرقة.

نوح:

- وما خطتك؟

- لحسن الحظ أن شقة يونس تقع في الطابق الثاني.

- كيف عرفت ذلك؟

- دعينا لها أنا وزوجي لتناول الغداء ذات مرة.

وتابعت:

- دعني أكمل بعد أن ندخل الشقة من خلال النافذة نمشي بضعة أمتار عبر الصالة لندخل إلى غرفتنا المقصودة، التي يجري فيها معظم تجاربه، فمن المؤكد أن كلًّا من جهازك وسائلك هناك.

نوح:

- ومتي يبدأ التنفيذ؟

ردت وقد لمع بريق عينيها:

- في الثانية عشر منتصف الليلة.

***

اجتمع عقرب الساعة عند الثانية عشر، وبخطوات حذرة تحرك كلاهما عبر الشارع الجانبي المؤدي إلى البناية المنشودة، أشارت ديار إلى إحدى البنايات:

- هذه هي.

وضع نوح السلم المعدني أسفل إحدى شرف الطابق الثاني:

- سأصعد أنا أولًا.

صعد نوح درجات السلم أولًا، وما إن وصل إلى نهايته حتى أخرج من جيبه عصا معدنية حاول بها فتح النافذة الموصدة من الداخل، وما إن انتهى من ذلك حتى دلف إلى الغرفة، ثم أشار إليها للصعود، بخطوات حذرة سارا معًا عبر الردهة، حتى وصلا إلى الغرفة المقصودة، أدارت ديار مقبض الباب لينفتح إلى آخره. ديار:

- لا يوجد وقت كافٍ.. دعنا نبحث عنه.

نبش كلاهما كل ركن من الغرفة المليئة بالسحاحات والأنابيب، وأشاعوا فيها الفوضى وعدم النظام، حتى وجد نوح الجهاز.. صاح:

- ها هو الجهاز، يتبقى لنا العثور على السائل النيتروني.

ديار:

- لقد بحثنا عنه في كل مكان، ولم نجده.

نوح:

- لم يتبقَ سوى ذلك المكتب.

توجه نوح إلى المكتب، وأفرغ محتويات أدراجه، وصاح فرحًا وهو يمسك بأنبوب:

- عثرت عليه.

لتقترب ديار وتطلب منه أن يخفض صوته، وهما لفي ذلك إذ يرتفع صرير الباب، فيدفع نوح صديقته أسفل المكتب، وشرع هو الآخر في الاختباء ولكن ضوء الغرفة كان أسرع منه:

- من أنت أيها اللص؟

يرد نوح مبتسمًا:

- أنا نوح صديقك.

تابع:

- دعك من هذا الآن.. أخبرني.. أين عويناتك؟!

ضحك نوح ضحكة خفيفة.. وتابع:

- يا لهذا التقدم الطبي!

يرد يونس:

- ولكن صديقي نوح توفي منذ ثلاث سنوات في حادث.

نوح:

- توفي!

يونس:

- نعم.. كنت معه في الحادث، أصبت أنا وتوفي هو.

نوح في سخرية:

- أعلم ذلك بالطبع أيها الغبي.

سأل يونس في تلعثم:

- إذًا.. من أنت؟

ليضحك نوح في شر:

- أسف لذلك... نسيت أن أخبرك أنني شبحه.

دوت في جسد يونس رعشة شديدة، وتفوه بصعوبة:

- ولماذا أنت هنا أيها الشبح؟

يصيح نوح وهو يضخم صوته:

- أنا هنا للانتقام.
- انتقام! مـ مـ من من؟!

يرد نوح وهو يحاول إخافته:

- منك.

تلعثم يونس في الكلام:

- لماذا؟
- لأنك رفضت أن تعطيني عويناتك قبل أن أموت، فلتصبك لعناتي.

وفجأة، بدأ يونس في الركض إلى الخارج، وهو يدمدم بأحاديث غير مفهومة، وكلمات غير مألوفة، نهضت ديار وهي تضحك:

- فكرة عظيمة، من أين أتيت بها؟

نوح:

- دعينا نسرع في الذهاب الآن قبل أن يعود.

***

وفي المكان المقصود أعد نوح الجهاز للعمل، وهو يشرح لها طريقة فعل كل ذلك، لتعاود البوابتان في الظهور، شرع نوح في العبور:

- هذه هي مقصدي، سأنفذ خلال هذه البوابة.

ترد ديار مازحًا:

- تنفذ بمعني تعبر أم تنفذ بمعني تنتهي؟

نظر إليها مبتسمًا على دعابتها تلك، التي ترددها دائمًا فكثيرًا ما رددتها قبل أن تموت:

- بعد أن أعبر لا تلمسي الجهاز حتى تنخفض حرارته.

وأردف وهو يعطيها الأنبوب الزجاجي:

- إذا فكرتي يومًا ما في العبور، ستجدين من ينتظرك في الجانب الآخر من البوابة.

ابتسمت ديار ابتسامة تظهر تورد وجنتيها، قالت:

-عليك أن تخلص في مساعدتهم، حتى يبقي نجمي ساطع إلى الأبد.

نوح:

- أعدك بذلك.

وقبل أن يذهب.. أضاف:

- يومًا ما سأحكي لابنتي عنك.

تأهب للعبور، وسرعان ما طافت حوله المحسوسات مرة أخرى، دست ديار السائل في حقيبتها، لتتفاجأ بورقة أفردتها وبدأت في قراءة محتواها.

"كطائر أرهقه التحليق، وكموجة ماء تلاطمت بصخور الشاطئ عند الغروب، فالتشبيهات كثر ولكني لا أجد أفضل من ذلك لأبين لكِ كم يكون شقائي؛ فالأول جثا أسفل جذع شجرة في طرف الوادي يفكر أيعاود التحليق مجددًا، تائهًا لا يعلم ما هي جهته ولا يعرف كنهها، ام يجثو هنا إلى الأبد، أما الأخرى فكلت من السير والانتقال غير مصدقًا أنها رأت الشاطئ فراحت تصطدم به لتعانقه في شوق.

لا نحتاج إلى مفكر أو فيلسوف حتى يخبرك ما هو الطائر الذي مل التحليق، أو ما هي الموجة القادمة من ذلك الأفق البعيد والتي أعياها التنقل والسفر، ولكننا نحتاج إلى المزيد من الشجاعة حتى نخبرك بكونك الوادي الذي يحتاج إليه كل طائر أجهد وأنهك من الحوم في السماء، كما ينقصنا أيضًا الثبات حتى نبلغك بكونك الشاطئ الذي تستقر عنده الأمواج بعد عناء السفر والترحال.

لا أعلم ما يميز الطائر عن أقرانه حتى ترضين عنه، فهو أقبحهم وجهًا، وأقلهم مالًا، ولكنه قادر على تعليم جيش نازي كامل كل معاني العطاء والحب، فليعلم الوادي جيدًا، بأن الطائر لا يقدر على التفوه بمثل هذا، وما دفعه لذلك هو أن شقاءه بلغ أشده، ووصلت تعاسته إلى الذروة.

في النهاية أود إخبارك أن سواء وقعت كلماتي تلك في مرمى بصرك، أو ذهبت في طي النسيان، فالقرار لك وحدك، بيدك أنتِ فقط أن تجعلي الطائر يغرد في واديك، أو أن يعاود التحليق عاليًا غير عالم بجهته حتى يغلبه الموت.

زوجك نوح".

****

-١٩-

وعاد بورهام للحياة

يونس:

- كيف عدت؟!

نوح:

- أنت هو نفسك في أي مكان.

- ماذا تقصد؟

- ساعدني يونس الموجود هناك.

تبسم يونس:

- هل عثرت عليها؟

- نعم.

عواد:

- إذًا.. هل نتوقف عن عبور البوابات؟

نوح:

- أعدك بهذا، ولكن دعنا نعبر الثغرة الباهتة للمرة الأخيرة.

يونس:

- لماذا؟

نوح:

- لكي ننقذهم.

عواد:

- يا أخي ملايين هم سكان هذه البوابة، لم يجسروا على مقاومة ألوف ممن تحكموا في مصائرهم، وأنا وأنت اثنين.. هل نقدر على ذلك؟!

نوح:

- نعم هم ملايين، ولكن ملايين نال منها اليأس، وامتلأت قلوبها بالخوف، ووجلت أجسادها بالذعر.. وإذا استطعنا أن نجعلهم يهزمون خوفهم، ويتخلصون من يأسهم لكان النصر المبين حليفهم.

تابع مبتسمًا:

- وحتى يطمئن قلبك بعض الشيء، وتكف أطرافك عن الرجف، هذه المرة لن نذهب بمفردنا، سيكون معنا ثالث.

عواد وهو يشير ليونس:

- مَن؟! وهل يقدر ذو العوينات على مقاومة أحد؟

يرد نوح مبتسمًا:

- يونس لن يأتي معنا، بل سيبقى هنا منتظرًا عودتنا.

تابع:

- من سيأتي معنا هو الضابط يحيى.

عواد:

- يحيى! لمَ؟

نوح:

- سأشرح لك فيما بعد.

يعاود عواد السؤل:

- ومتى يكون العبور؟

ويعاود هو في الإجابة:

- غدًا صباحًا.

عواد:

- حسنًا سأذهب الآن وغدًا صباحًا أنتظركم على الطريق.

نوح:

- ليكن.

***

وفي تمام التاسعة مساءً، يدخل الخفير سلطان بمعطفه الرث وبندقيته المستوية على ظهره إلى مكتب الضابط يحيى ليخبره أن أحدهم أتى لمقابلته:

- ماذا هناك؟

سلطان:

- شخص يدعى نوح يريد لقاءك.

- دعه يدخل.

ليصيح سلطان داعيًا نوح:

- تفضل يا أستاذ.

يدلف نوح من الباب، وينهض الضابط ليحييه:

- حمدًا لله على سلامتك، تحسنت صحتك جدًّا عن آخر مرة قمت بزيارتك فيها في المستشفى.

تابع:

- كنت فاقد للنطق يا أخي.

ليحييه نوح مبتسمًا:

- حمدًا لله على سلامتك أنت.. لقد طرق أذني وأنا في طريقي لك أنك تعرضت لمحاولة قتل عصر اليوم.

يحيى:

- نعم.. إنها المحاولة الأولى منذ عملي بالشرطة.. أخطأ المجرم في تصويبه.. والحمد لله نجوت.

نوح:

- حمدًا لله.. ولكن أخبرني هل لديكم معلومات جديدة عن تلك الحوادث التي كانت زوجتي ضحية آخرهم.
- للأسف لا.. والمحاضر أغلقت باعتبار أنها حوادث طبيعية، لا وجود لأي شبهات جنائية.

نوح:

- ولكني أعلم شيئًا خاصًّا بتلك الحوادث لا تعلمه أنت.

يحيى:

- وما هو؟

نوح:

- إذا أردت أن تعرف فلتنتظرني صباح غد مكان الحادث.
- فليكن.

***

وفي صباح اليوم التالي كان أربعتهم عند مدخل القرية.. يحيى:

- ها قد أتيت فلتشرح لي.

نوح:

- سأخبرك بكل شيء عندما نصل إلى الجانب الآخر.
- أي جانب؟

وهنا ناول يونس الأنبوب الزجاجي إلى نوح الذي سكب نصفه في الجهاز، وسرعان ما ظهرت التشوهات الناتجة عن تداخل الأبعاد ببعضها بعضًا.. صاح يحيى فاغرًا فاه:

- ما هذا؟

نوح:

- اعبر معنا أولًا.. وسأخبرك بكل شيء.

لم يجِب يحيى وعبر معهم البوابة فاغرًا فاه من الدهشة، واتسعت عيناه من الحيرة، غير مصدق لما يراه.

***

وعلى الجانب الآخر استقل ثلاثتهم إحدى العربات المستوية قاصدين القرية، وكان الحصان المجر للعربة يلهث من فرط التعب وصعوبة الطريق، وعلى سطح العربة بدأ نوح يوضح للشرطي كل هذا، بدأ يخبره بالثغرة التي اكتشفوها، وعن الجهاز الذي صنعه يونس، وعن السائل الذي حضره أيضًا، وعن الأبعاد، وعن كيفية عبورها، وعن حيم وسعيه هو وابنته لإنقاذ أهل عالمه.. نوح:

- لو أخبرتك بكل هذا في مكتبك لما صدقتني.

يحيى:

- نعم.. حتى الآن لا أصدق ما أراه.

دار يحيى بوجهه صوب عواد:

- لقد رأيتك مسبقًا، ولكن لا أتذكر أين.

نوح:

- ربما في المستشفى عند زيارتك لي ذات مرة.

يحيى:

- ربما.

***

جال ثلاثتهم في شوارع القرية وأزقتها، حتى وصلا إلى بيت تهاوى بنيانه وتآكلت ألوانه، ونوح لا يكف عن الشرح والحديث لصديقهم الجديد، وبالقرب من البيت المقصود صاح عواد:

- لقد نسيت شيئًا ما في العربة، سأسرع لإحضاره.

وأردف وهو يسرع للخلف:

- لعل العربة لم ترحل حتى الآن.

نوح مناديًا إياه:

- بعد أن تفرغ من ذلك، تعالَ إلى هنا.

يظهر صوت عواد قبل أن يختفي عن السماع ويختفي هو عن الرؤية:

- سأنتظر عند بداية الشارع كما في المرة السابقة.

عاد انتباه نوح إلى صاحبه الجديد، وتهيأ في طرق الباب الذي تآكلت طبقاته كما يأكل التراب موتاه:

- ها أنا عدت ثانية.. مرحبًا بك أيها العجوز.

ترتمي على حيم ابتسامة عريضة نتج عنها عبوث وجهه المجعد:

- كنت متأكدًا من عودتك.

- دعنا ندخل يا رجل لأريك شيئًا قد يسرك.

يتمتم حيم:

- آسف... تفضلوا.

دلف كلاهما إلى الداخل وظل يحيى يرمق المنزل الكهل في وجوم، ويشيح ببصره إلى الصور المثبتة في الحوائط، وتوقف بصره عند صورة مثبتة في أحد الأركان وقد أحاط بها قطعة قماش سوداء اللون، مال يحيى إلى صديقه:

- إنها زوجتك؟!

نوح:

- نعم هي.. كل شيء كما أخبرتك.

أشار نوح إلى صديقه يحيى وتوجه بالحديث للعجوز:

-ها أخبرني أيها العجوز.. ما رأيك في هذا؟

يرد العجوز:

- في ماذا؟!

نوح:

- في صديقي هذا.

حيم:

- إنه يشبه شخصًا ما أعرفه.

نهض حيم من مجلسه، وشرع في الاقتراب من يحيى ليرمقه عن قرب ويتفحص ملامح وجهه الشديدة التي توحي بالغلظة:

- يا للسماء! إنه حقًّا شديد الشبه به.

عدل نوح من مجلسه وهو يقول:

- القائد بورهام.. بالتأكيد لا يشبهه.

حيم في توجس:

- كيف عرفت أني أقصد القائد بورهام؟ ومن أخبرك به من الأساس؟

نوح:

- دعك من هذا الآن, ودعني أخبرك بأن صديقي يحيى لا يشبه قائدك بورهام، وذلك لأن صديقي يحيى هو القائد بورهام نفسه.

حيم:

- إلى أي شيء تشير؟!

وهنا قاطعهم يحيى:

- من ذلك الذي أشبهه؟ وما السبب الحقيقي لإتيانك بي إلى هنا يا نوح؟

يتحدث نوح قاصدًا التوضيح:

- منذ زهاء ٢٠ عامًا تعرض هؤلاء القوم لغزو من أناس لا تعرف الرحمة لقلوبهم طريق، فدمروا المنازل والطرق، وحرقوا الأرض ونهبو الخيرات والمحاصيل، وخطفوا الأولاد وأسروا البنات، وأجبروا العجائز على العمل معهم وخدمتهم.

استمر نوح في التوضيح:

- وبعد أن اشتد القرب ظهر بورهام وهو شاب قوي الجسمان، قوي الحضور، عمل على مقاومة هؤلاء الغجر، وسرعان ما التف حوله جمع من شباب القرية هنا وبعض شباب القرى المجاورة، وعملوا جميعًا على دحض هؤلاء الغجر وطردهم من أوطانهم.

واستطرد:

- وما هي سوى بضعة أشهر حتى تلحق حول الشاب بورهام جميع الناس وجعلوا منه قائدهم الأعلى، وشرعوا في مقاومة الغجر تحت راية قائدهم المغوار بورهام فكان يزودهم بالمعدات والسلاح ويبث فيهم الأمل الطموح.

تابع:

- كثر عددهم، واشتدت عزائمهم، وأزاقوا المحتالين الويلات، وأرغموهم على التقهقر والرجوع للخلف، فلم يجد الغجر طريقة لإطفاء حماس الناس، وأحسوا بقرب نهايتهم، وبدأت الانقسامات تدب في جيشهم وجمعهم.

واصل نوح في الحديث:

- وفي أحد اجتماعات زعيم الغجر كتالي مع قادة جيوشه وكبار شعبه، توجه الزعيم الغجري كتالي بالسؤال: "من أين لهؤلاء بهذه القوة؟".. وتابع وهو يصرخ: "نحن نفوقهم عددًا وعدة، وأكثر منهم تنظيمًا، هم لا يملكون سوى أسلحة بدائية مقارنة بأسلحتنا! إذًا ما سبب هزائمنا المتكررة في الآونة الأخيرة؟".. ليرد أحد الحاضرين: "العقيدة.. هي سبب تفوقهم علينا، فهم يحاربون لأجل استعادة أرضهم التي نهبناها وأفرغنا خيراتها، نعم أسلحتنا متفوقة عنهم، وتنظيمهم لا يضاهي تنظيمنا، ولكن عقيدتهم

التي يحاربون من أجلها أقوى من عقيدتنا".. سأل الزعيم: "إذًا ما الحل؟".. ليرد أحد الحاضرين: "لا حل سوي قتل ما يبث فيهم كل هذا الأمل ويقوي عقيدتهم كلما ضعفت.. لا حل سوى قتل قائدهم بورهام".. رد كتالي: "أعمل ما تنوي، ولك كل الصلاحيات لذلك".

تنهد نوح وأضاف:

- فقتل هؤلاء الغجر القائد بورهام بعد أن تلحقوا حوله في إحدى المعارك وألقوا بجسده في الماء، ونتيجة لذلك سرعان ما ضعفت المقاومة، وعاد الغجر إلى احتلال مساحات كبيرة من أرض هذا العالم.

سأل يحيى:

- وما دوري في كل هذا؟

يجيب نوح:

- لكي يستطيع هؤلاء الناس مقاومة الغجر من جديد لا بد من إعادة حركة المقاومة، وهذه الحركة لن تقوم إلا بإعادة القائد بورهام إلى الحياة، حتى يعود الناس إلى الالتفات حوله من جديد.

حيم:

- يا لها من فكرة عظيمة.

يعاود يحيى للسؤال مرة أخرى:

- وكيف السبيل لذلك وقد قتل القائد بورهام؟

نوح:

- وهاذا هو دورك الذي سألت عنه، هو أن تطل على الناس كبورهام قائدهم وليس كيحيى.

- كيف لي ذلك وأنا مجرد شرطي؟

نوح:

- تذكر أن القائد بورهام هو نفسه الشرطي يحيى لكن اختلفت المصائر تبعًا لاختلاف العوالم.

يشيح حيم بوجهه إلى يحيى مستعطفًا:

- أرجوك يا سيدي اقبل هذا.. أنت أملنا الوحيد.

تنهد يحيى وأفرغ ما في جعبته:

- مساعدة الناس هي طبيعة عملي.. متى نبدأ التنفيذ؟

نوح:

- صباح غد.. بعد إقامة السوق.

أخرج نوح هاتفه الخلوي من جيبه ودنا من حيم:

- هل تعرف صاحب هذه الصورة؟

يجيب:

- نعم.. أنه واحد منهم، حاول خطف ابنتي، ولكنها رحلت إليكم قبل أن ينفذ ذلك.

نهض نوح من مجلسه، اقترب من الباب وشرع في المغادرة:

- يحيى، انتظرني هنا، بضع دقائق وسأعود.

يحيى:

- هل آتي معك؟!

- لا... أود الذهاب بمفردي

***

كانت الشمس قد غابت، وشرع نورها السماوي يودع الأفق حزينًا للرحيل، وتأهب الظلام للقدوم، وفرض سطوته وسواده، سار نوح في شارع فرعي وهو يرمق ذلك المشهد السرمدي، وهو لفي خيالاته تلك إذ يرتفع صوت عواد:

- أين يحيى؟

يرد نوح في حزم:

- اتبعني.

- إلى أين؟

لم يرد نوح واستمر في السير، يتبعه عواد الذي لم يكف عن السؤال حتى وصلا إلى زقاق جانبي متطرف لا يمر به أحد، وأسفل عمود إنارة يتقطع ضوؤه الباهت من فرط الإعياء، جلس نوح على صندوق خشبي وضع بجانب أحد الحوائط، وطلب من صديقه أن يجلس أمامه.. نوح:

- أخبرني يا عواد ما السبب الذي جعلك تشك في يونس أثناء أولى رحلاتنا عبر البوابات.

يرد عواد مبتسمًا:

- لأنه لم يعبر معنا، وتركنا نعبر بمفردنا.

- لم يعبر معنا لأنه آثر البقاء هناك لمساعدتنا إذا تأخرت عودتنا.

وتابع:

- دعك من هذا وأخبرني أتيت إلى قريتنا منذ بضع سنوات قليلة صحيح؟

- صحيح.

نوح:

- أين كنت تسكن قبل ذلك؟

- لقد أخبرتك سابقًا بمكوثي في إحدى القرى القريبة منكم.

نوح:

- ولماذا أتيت إلينا؟

عواد:

- طبيعة عملي تملي عليَّ ذلك.

نوح في تعجب:

- منذ أن التقيت معك أول مرة وحتى جمعنا هذا لم تخبرني بأنك تعمل.
- لم تأتِ أي فرصة لقول ذلك... ولماذا تسأل عن ذلك الآن؟

نوح:

- سأخبرك بكل شيء، ولكن دعني أملي عليك سؤالًا آخر.

وتابع قبل أن يتكلم عواد:

- لماذا رفضت البوابة الثانية عبورك؟!
- لا أعلم ذلك.. ولكن ربما لأن نسختي هناك ما زالت تتنفس.
- لا.. لقد تأكدت بنفسي أنك ميت هناك.

يسأل عواد وهو يهز رأسه:

- إذًا لماذا رفضت البوابة الثانية عبوري؟!

يخبره نوح وهو يضع يديه أسفل ذقنه:

- دعني أخبرك بذلك، رفضت البوابة عبورك لأن القاعدة تنص على أن يسمح لسكان أي كون بالانتقال عبر البوابات إلى كونين مختلفين، أحدهم أدنى ببعد واحد فقط، والآخر أعلى ببعد واحد فقط.

أردف:

- أي لا يمكن لأي شخص المرور من بوابتين أعلى بعضهم أو بوابتين أسفل.. وهذا ما حدث معك.

يسأل عواد وقد تغير لونه وأربد وجهه:

- أنا لا أفهم عن ماذا تتحدث وماذا تقصد؟

يجيب نوح:

- أردت أن أوضح لك -وأعلم يقينًا أنك تعي ذلك- أنك لست من كوني، وأنك من سكان هذا الكون.

وتابع:

- لقد أخفيت كل شيء عنا، لكنك لم تستطع إخفاء لون وجهك الباهت الذي يختلف عني وعن سكان كوني.. إنك تشبه سكان هذا العالم كثيرًا.

وأضاف نوح وقد تغير صوته:

-لقد استطاع جسدك تحمل البعد الإضافي لكوننا، لكنه لم يستطع تحمل البعد الإضافي الآخر، لذا لم تذُب جزيئاتك مع الثغرة على العكس مني.. وهذه هي القاعدة التي لم يتوصل لها يونس حتى الآن.

طاف العبوس على وجه عواد:

- أنا لا أفهم عن ماذا تتحدث!

نوح:

- دعني أكمل من فضلك.. أثناء زيارتنا لحيم في المرة الأولى تهربت من لقائه بحجة أن لك صديقًا تود أن ترى نسخته هنا، مع أنك لا تملك أي أصدقاء سوى أنا ويونس، وفي المرة الثانية تهربت بحجة نسيانك لشيء ما في العربة وتود العودة لإحضاره، مع العلم أنك لم تكن تحمل شيئًا أثناء عبورنا البوابة.

وأضاف:

- تهربت من لقائه في كلتا المرتين لأنك خشيت أن يتعرف إليك.

بلع نوح ريقه وأكمل:

- حيم الذي حاولت خطف ابنته ديار لأنك أردتها لك، وعندما رأيتها تعبر الأبعاد إلينا أتيت وراءها تقفو إثرها قبل أن تنغلق البوابة.. أتبعتها لسببين الأول لأنك تريدها، والآخر حتى تعطل أي خطة تقوم بها لإنقاذ أهلها.

ضحك عواد ضحكة خبيثة، تجاهلها نوح وأضاف:

- وأخيرًا عندما علمت أن يحيى قادم معنا إلى هنا، طال العبوس وجهك، وحاولت اغتياله حتى لا يأتي إلى هنا، لأنه يشبه بورهام كثيرًا، بل هو نفسه بورهام.

وختم:

- لقد أصبح وجهك مألوفًا لديه، وحاول التعرف إليك بينما نحن نستقل العربة إلى هنا، ولكنه لم يستطِع.

عواد ساخرًا:

- أحييك على ذكائك.

نوح:

- بعد أن علمت كل شيء أخبرني.. من أنت؟

عواد:

- سأخبرك.. تعلم لماذا؟!

- لماذا؟!

ليجيب عواد وهو يحرك زاوية فمه اليمنى:

- لأنك ستعاني نفس مصيرهم.

وتابع:

- أدعى درنكي وأنا الابن الأكبر لزعيم الغجر كتالي.

نوح:

- ولماذا عبرت إلى عالمنا؟

- كما قلت أنت، لأمنع أي مساعدة منكم لسكان هذه الأرض.

- ولماذا فعلتم بهم ذلك؟

يجيب درنكي:

- هم قوم كسالى عديمو النفع وقليلو الفائدة، لذلك عزمنا على الفتك بهم، أخذنا صغارهم ليعملوا تحت سطوتنا، وأجبرنا كبارهم على العمل لدينا.. كما ترى لقد كان قدومنا نفعًا لهم.

يصيح نوح في حزم:

- ولكنهم أجمعوا على مقتكم، واصطفت آراؤهم على ضرورة رحيلكم!
- آراؤهم!
- نعم.. أي حرية ألسنتهم.

يصرخ درنكي :

- الحرية التي تتحدث عنها خلقت لنا نحن السادة.. لا للعبيد، أي أنها وجدت ليدرك معناها ويتمتع بها الأقوياء، ولا نصيب منها للضعفاء.

نوح:

- منذ أن هبط آدم على الأرض جعل الله الحرية تطوف في كل أركانها، وتصل إلى كل زقاق فيها، فهي هبة منحها الله لساكني الأرض والبحر، وطائفي السماء، لقد منحها الله للجميع بلا استثناء، منحها للضعيف قبل القوي.

صفق الغجري ساخرًا:

- لقد علمت الكثير يا نوح، وأصبح الخلاص منك أمرًا لا مفر منه ولا بديل عنه.. إنه مصيرك يا صديقي.

وقبل أن يندفع درنكي نحوه إذ يفاجئه نوح بحجر متوسط الحجم، وما إن ارتطم الحجر برأس الغجري حتى سقط مغشيًا عليه تسيل الدماء من رأسه، أخرج نوح من تحت سترته حبل وشرع في تقييده، وما إن انتهى من ذلك ركله قائلًا:

- غدًا صباحًا ستلقى مصيرك.

***

وعند عودته، وأثناء مرور نوح من أحد الشوارع الجانبية الضيقة إذ بباب يُفتح، وتخرج منه سيدة تنازع الخمسين نال منها المرض، وضعفت عيناها من كثرة ما نزفت أعينها من دموع.. نظر إليها نوح وقد انفجرت أساريره:

- سلام عليك يا عمة.. هل من شيء أقدمه لك؟

لتجيب المرأة:

- ضاع كل من زوجي وابني، ولم أعثر عليهم حتى الآن، هل تعلم أين ذهبوا؟

- نعم أعرف أين ابنك يا عمة، ولكن في مكان آخر ليس هنا.

تسأل المرأة:

- ماذا تقصد؟

لا شيء يا عمة.. ولكن أعدك بأن أحضره لك.

لم تعبأ المرأة بكلامه، وارتفع بكاؤها وبصوت به حشرجة أضافت:

- إذا عثرت عليه كما تدعي، أخبره أن يأتي.. فكما ترى غلبني السن، وأجهدني البحث عنه، ولا تنس أن تخبره أن تعبي نال من غريزتي.

استدارت المرأة بصعوبة، ودلفت إلى الداخل ثم أغلقت الباب، وأكمل نوح سيره عائدًا إلى بيت حيم.

****

-٢٠-

القائد الجديد

يرويها حيم

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت مع يحيىٰ ونوح إلىٰ السوق، وقد تخفينا في ثياب طويلة، ووضعنا علىٰ رؤوسنا قبعات شبه بالية، وأخذنا نرمق الجمع الغفير من الناس المكتظين في الزحام، ونحن لفي ذلك إذ رأينا أحد الغجر وهو يضرب واحدًا من العجائز لعدم طاعته له، وفي مكان آخر من السوق وجدنا غجري يركل امرأة لتسقط علىٰ الأرض وهي تحمل ابنها الرضيع، فالوضع مأساوي حقًّا.. الناس هنا خائفون، يعملون من دون أجر أو طعام، ومَن يعترض علىٰ ذلك يُقابل بالسب والركل وربما القتل، لقد أدرك الشرطي يحيىٰ أنه لا مفر من مساعدتنا؛ حتىٰ نتخلص من هؤلاء الذين لا يكفون عن السب والركل والقتل، وأثناء سيرنا لم نتوقف عن مراقبة الغجر ممن كانوا في السوق، وبينما نحن كذلك إذ توجه الشرطي يحيىٰ لـ نوح سائلًا:

- أمتأكد من نجاح الخطة؟

يُجيب نوح:

- لا، ولكننا لا نملك أي خيار آخر.

وتابع:

- يجب أن يشعر الناس أنك القائد بورهام نفسه.

يحيىٰ مُبتسمًا:

- لكني بورهام نفسه.

تدخلت في الحديث:

- بورهام كان قوة، يملك من التأثير ما لا يملكه أحد، لا بد أن تبذل قصارىٰ جهدك حتىٰ يجتمع الناس حولك كما فعلوا مع بورهام.

وصل الزحام في السوق إلىٰ الذروة، وتكدس الناس في طرقات السوق، وامتزجت أجساد كلٍّ من الباعة والمشترين لا يفرق بينهم إلا ذلك الصوت المبحوح الخاص بالبائعين، وكان يتخلل السوق سيرًا مئات من الغجر لجمع إتاوات من أصحاب الحوانيت، كان الجميع يقبل ذلك، ومن يرفض يُركل ويُضرب وتُنثر بضاعته في الشارع، وبينما نحن نسير إذ ارتطم نوح بأحد الغجريين.. نوح:

- معذرة.. لم أرَك.

ليصيح الغجري بصوته الغليظ وشفته المكتظة:

- ابتعد وإلا حطمت وجهك.

لحظات قليلة وارتفع صوت قادمًا من منتصف السوق فهرعنا جميعًا إلىٰ هناك، وسرعان ما التف الناس حول مجموعة من الغجر يضربون رجلًا عجوزًا يملك أحد الحوانيت.. يصيح الغجري وهو يضربه:

- أين النقود التي نُحصِّلها منك يوميًّا؟

ويصيح غجري آخر:

- أين حصتنا من بضاعتك المباعة بالأمس؟

يتنهد العجوز وهو يحاول تفادي الضرب:

- لم أبِع شيئًا بالأمس، لم يعد الناس يتوافدون علىٰ حانوتي.

ليصرخ الغجري الأول وهو يركله:

- وما ذنبنا نحن في كل ذلك؟ لا تُقحمنا بأحاديثك تلك.. أعطنا النقود فقط.

ظل العجوز يصرخ من فرط الألم المصاحب للضرب، والناس حوله غير قادرين علىٰ التدخل لخلاصه منهم، فمن يتدخل يتعرض لنفس مصيره، وهنا شرع يحيىٰ للتدخل فأمسكت بيده قائلًا:

- تعوَّدنا ذلك، عُد وإلا ستُضرب مثله.

تخلص يحيىٰ من يدي ودخل في دائرة الاشتباك، وحاول أن ينهض بالعجوز الذي اشتد ضربه.. أمسك الغجري يحيىٰ من رقبته ورفعه لأعلىٰ قائلًا:

- من أنت إذًا حتىٰ تتدخل وتمنع الضرب عن العجوز؟

يرد يحيىٰ وهو يحاول التملص من يد الغجري:

- سأقدم لكم حلًّا لكل هذا.

ترك الغجري رقبة يحيىٰ.. وتحدث وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه:

- لا فائدة لكم من ضرب العجوز.. تعالوا غدًا وحصلوا منه إيراد الأمس واليوم.

نظر الغجري إلىٰ العجوز قائلًا:

- كما قال هذا لا فائدة من ركلك، سنعود غدًا وإن لم نجد النقود سنقتلك أنت وهذا.

ثم أشار الغجري إلىٰ يحيىٰ وشرع في الرحيل.. قُلت:

- هذا هو حال السوق منذ أن دخل هؤلاء قريتنا.

صاح العجوز صاحب الحانوت وهو يبكي:

- سيأتون غدًا لقتلي.

قال يحيىٰ للعجوز:

- أعدك بأن كل شيءٍ سيكون علىٰ ما يرام قبل أن يأتوا غدًا.

****

ملنا إلىٰ منصة عالية مبنية في منتصف السوق، وصعدنا إليها، وشرع يحيىٰ في نزع ما يخفي وجهه.. صاح أحد المارة علىٰ حين غرة:

- بورهام!

وقال آخر:

- ألم يمت؟!

ونبس ثالث:

- كيف يكون ذلك؟! لقد رأيت جسده يطفو علىٰ الماء، وقد امتلأ بالطعنات.

استمر الناس علىٰ هذا ما يقارب ربع الساعة، وقد بدأت أعدادهم تزداد، وأخذت الجلبة الصادرة منهم في الارتفاع، الكثير منهم يتعجب ذلك، ويسألون كيف يكون هو القائد بورهام وقد أغرقت أخبار وفاته كل هذا العالم.. قطع تلك الجلبة صوت يحيىٰ:

- أعلم أن كثيرًا منكم لا يصدق ما يراه، ولكنها الحقيقة.

ارتفع صوت قادمًا من الجمع:

- لقد رأينا جسدك وهو يعتلي الماء!

ليضيف يحيىٰ:

- إنها خدعة دبرها هؤلاء ليضعفوا عزائمنا.

عاد الصوت للظهور متسائلًا:

- وأين كنت كل هذا؟

يرد يحيىٰ:

- قام هؤلاء بخطفي وتعذيبي حتىٰ تتشتت هممكم، وتضعف إرادتكم، حاولت الهروب مرارًا ولكني لم أفلح في ذلك.

ثم أشار إلىٰ نوح:

- إلىٰ أن عثرت علىٰ صديقي هذا، فساعدني علىٰ الهروب من الظلمات، وبمجرد خروجي من وكرهم عدت إليكم لنكمل ما بدأناه.

ارتفع صوت آخر من الجمع:

- نحن جميعًا معك، لقد زادت الأمور سوءًا منذ رحيلك.

وصاح آخر:

- وأنا أيضًا معك.

ظهر من وسط الجمع شاب في العقد الثالث من العمر، يرتدىٰ سترة مهندمة، ذو أنف أحمر وعينين مبتسمتين، تلحق حوله مجموعة من الفتيان:

- أنا وكل أصدقائي معك أيضًا.

ارتفعت صيحات كل مَن بالسوق تأييدًا ليحيىٰ وسعادة لعودته، وهنا بدأ الغجر ملاحظة هذا، وامتدت أبصارهم إلىٰ المنصة غير مُصدقين ما يرونه، خائفين من عودته، ولكنهم عزموا علىٰ التخلص منه والقضاء عليه في الحال، قبل أن يعود الناس للالتفات حوله من جديد، فحاولوا الصعود إلىٰ المنصة، فتصدىٰ لهم الناس، وفتكو بهم، وجمعو أسلحتهم.. وهنا اندلعت شرارة المقاومة من جديد.

****

بدأت المناوشات في الاحتدام، وأخذت المعارك بيننا وبينهم تزداد واحدة بعد الأخرىٰ، وباشر كل سكان كوني في حمل السلاح لاستعادة الأرض وقتال الدخلاء، وانتقلت المعارك من قرية إلىٰ أخرىٰ، ومن مدينة لأخرىٰ، ومن بلد إلىٰ بلد، حتىٰ دوي صوت الرصاص في العالم كله، فأيقن الناس أن الخلاص من

الغجر أمر لا مفر منه بعد الآن، وجاءت الأخبار من كل صوب تفيد بتحقيق الانتصارات المتتالية، واستعادتنا لأرضنا المنهوبة، وبحدوث الانقسامات في جيوش الغجريين، غير المصدقين لما يرونه؛ فبعد موت بورهام ظنوا أن الناس لن يتحرك سكونها ثانية.

ودوي صوت تلك الانتصارات في كل أرجاء كوننا، وبدأ جميع سكان هذا العالم بما فيه من نساء وأطفال وعجز بمقاومة الغجر، ومطاردتهم في الشوارع والأزقة، والحرص علىٰ قتل ما تبقىٰ من جيوشهم المهزومة، والقائد يحيىٰ يقاتل مع الناس تارة، وتارة أخرىٰ يجتمع بهم ليخطب فيهم، ويبث في ضلوعهم الحماسة والإقدام، وضرورة التخلص من حياة العبودية التي عاشوها، ويحرك الحرية التي سجنت في ظلماتهم.

نقصت أعداد الغجر، وشارفوا علىٰ الانتهاء، وأصبح النصر حليفنا لا محالة.. وازداد يقين الناس بالنصر عندما جاءت الأخبار بمقتل زعيم الغجر كتالي ووزرائه، فذلك الخبر زادنا قوة وإقدام وجعلنا أكثر طلبًا وحرصًا علىٰ تحقيق النصر.

وبعد مرور أكثر من شهر، استعدنا معظم أراضينا، واختفىٰ الغجريون من أغلبية البلاد والقرىٰ، وازداد حب الناس ليحيىٰ ولصديقه الذي أخرجه من سجنه، وبدأت الحياة تعود كما كانت قبل الغجريين.. قال نوح لي ذات مرة بعد انتهاء إحدىٰ المعارك التي شاركنا بها:

- لقد أصبح النصر حليفكم لا محالة.

أجبت:

- من دون خطتك لم نكن نعرف للنصر أي طريق.

ثم توجهت إلىٰ يحيىٰ:

ومن دونك سيدي أيضًا.

قال نوح:

- هذا صحيح.. من دونك يا يحيىٰ، لم تكن توجد الفكرة من الأساس.

ثم ربت علىٰ كتفه وأضاف:

- حان وقت الرحيل يا صديقي.

قلت:

- ابقوا معنا بضعة أيام أخرىٰ.

قال يحيىٰ:

- لا جدوىٰ من بقائنا، هزمتم يأسكم، وصحت ألسنتكم، وأصبحتم للنصر أقرب، وعادت أموركم كما كانت.

سألت في مرارة:

- ومتىٰ الرحيل إذًا؟

أجاب نوح:

- اليوم في تمام الحادية عشرة مساءً.

سألني نوح:

- هل الجهاز الذي صنعه يونس ما زال معك؟

أجبت:

- نعم.
- نريد هذا الجهاز للعودة.
- فليكن.

****

ومع اقتراب الســاعة من الحادية عشــرة، كنا علىٰ ظهر العربة متجهين إلىٰ مدخل القرية.. صاح مقل للعربة:

- أنتم مَن كنتم مع البطل بورهام في السوق؟

أجاب نوح:

- نعم.
- وأين هو الآن؟

أجبت:

- يقاتل الغجر في الشمال.

دنا نوح إلىٰ يحيىٰ هامسًا:

- لو لم تضــع هذا الوشــاح الأســود حول وجهك لتلحق حولك الكثير، مجبرينك علىٰ البقاء وعدم الرحيل.. فلتدعو لي الآن، لأن هذه الفكرة ملكي.

عند مقصــدنا، طلبنا من الســائق أن يتوقف، ونزلنا مســرعين إلىٰ مكان الثغرة.. سألني نوح:

- هل عثرتم علىٰ ابن كتالي؟
- نعم.. وجدوه مقيدًا بالحبال في أحد الأزقة، ولا ندري من فعل به ذلك.
- وأين هو الآن؟
- قابع في السجن ينتظر العدالة.

أخرج نوح الأنبوب الزجاجي من حقيبته، وناولني إياه لأسـكبه في الجهاز، وسرعان ما عاودت التشوهات في الظهور.. تأهب يحيىٰ للعبور قائلًا:

- لا تعطوا الفرصــة لأي شــخص يفعل بكم ذلك مرة أخرىٰ، مهما كانت قوته، ولا تنتظروا قدوم بورهام آخر يجمعكم حوله، ليكن كل شــخص

منكم بورهام، يلهم من حوله بالشجاعة وعدم الخوف والاستسلام مهما تكن الظروف.

أومأت برأسي مكتفيًا بالابتسام والنظر إلىٰ يحيىٰ، وهو يختفي داخل البوابة.. قال نوح:

- ما هي خطتكم الآن؟

أجبت:

- بعد أن نتأكد من اختفاء الغجر تمامًا، سنبدأ ببناء عالم جديد، كعالمكم، وسنرسي به قواعد وقوانين تمنح الحرية لكل الناس بلا استثناء.

ابتسم لي نوح،و شرع في اللحاق بصديقه، فأمسكت بيده قائلًا:

- شكرًا لك علىٰ مساعدتنا.

نظر نوح إلىٰ السماء قائلًا:

- انظر إلىٰ هذا النجم البارز في السماء، إنه هي ابنتك، لقد وعدتها مرارًا أن يظل نجمها ساطعًا إلىٰ الأبد.

ابتسمت له وأنا ألوح بيدي مودعًا إياه:

- إلىٰ اللقاء يا زوج ابنتي.

****

-٢١-

وعاد الابن المفقود

يرويها الراوي الأصلي

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت مع يحيى ونوح إلى السوق، وقد تخفينا في ثياب طويلة، ووضعنا على رؤوسنا قبعات شبه بالية، وأخذنا نرمق الجمع الغفير من الناس المكتظين في الزحام، ونحن لفي ذلك إذ رأينا أحد الغجر وهو يضرب واحدًا من العجائز لعدم طاعته له، وفي مكان آخر من السوق وجدنا غجري يركل امرأة لتسقط على الأرض وهي تحمل ابنها الرضيع، فالوضع مأساوي حقًّا.. الناس هنا خائفون، يعملون من دون أجر أو طعام، ومَن يعترض على ذلك يُقابل بالسب والركل وربما القتل، لقد أدرك الشرطي يحيى أنه لا مفر من مساعدتنا؛ حتى نتخلص من هؤلاء الذين لا يكفون عن السب والركل والقتل، وأثناء سيرنا لم نتوقف عن مراقبة الغجر ممن كانوا في السوق، وبينما نحن كذلك إذ توجه الشرطي يحيى لـ نوح سائلًا:

- أمتأكد من نجاح الخطة؟

يُجيب نوح:

- لا، ولكننا لا نملك أي خيار آخر.

وتابع:

- يجب أن يشعر الناس أنك القائد بورهام نفسه.

يحيى مُبتسمًا:

- لكني بورهام نفسه.

تدخلت في الحديث:

- بورهام كان قوة، يملك من التأثير ما لا يملكه أحد، لا بد أن تبذل قصارى جهدك حتى يجتمع الناس حولك كما فعلوا مع بورهام.

وصل الزحام في السوق إلى الذروة، وتكدس الناس في طرقات السوق، وامتزجت أجساد كلٍّ من الباعة والمشترين لا يفرق بينهم إلا ذلك الصوت المبحوح الخاص بالبائعين، وكان يتخلل السوق سيرًا مئات من الغجر لجمع إتاوات من أصحاب الحوانيت، كان الجميع يقبل ذلك، ومن يرفض يُركل ويُضرب وتُنثر بضاعته في الشارع، وبينما نحن نسير إذ ارتطم نوح بأحد الغجريين.. نوح:

- معذرة.. لم أرَك.

ليصيح الغجري بصوته الغليظ وشفته المكتظة:

- ابتعد وإلا حطمت وجهك.

لحظات قليلة وارتفع صوت قادمًا من منتصف السوق فهرعنا جميعًا إلى هناك، وسرعان ما التف الناس حول مجموعة من الغجر يضربون رجلًا عجوزًا يملك أحد الحوانيت.. يصيح الغجري وهو يضربه:

- أين النقود التي نُحصِّلها منك يوميًّا؟

ويصيح غجري آخر:

- أين حصتنا من بضاعتك المباعة بالأمس؟

يتنهد العجوز وهو يحاول تفادي الضرب:

- لم أبِع شيئًا بالأمس، لم يعد الناس يتوافدون على حانوتي.

ليصرخ الغجري الأول وهو يركله:

- وما ذنبنا نحن في كل ذلك؟ لا تُقحمنا بأحاديثك تلك.. أعطنا النقود فقط.

ظل العجوز يصرخ من فرط الألم المصاحب للضرب، والناس حوله غير قادرين على التدخل لخلاصه منهم، فمن يتدخل يتعرض لنفس مصيره، وهنا شرع يحيى للتدخل فأمسكت بيده قائلًا:

- تعوَّدنا ذلك، عُد وإلا ستُضرب مثله.

تخلص يحيى من يدي ودخل في دائرة الاشتباك، وحاول أن ينهض بالعجوز الذي اشتد ضربه.. أمسك الغجري يحيى من رقبته ورفعه لأعلى قائلًا:

- من أنت إذًا حتى تتدخل وتمنع الضرب عن العجوز؟

يرد يحيى وهو يحاول التملص من يد الغجري:

- سأقدم لكم حلًّا لكل هذا.

ترك الغجري رقبة يحيى.. وتحدث وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه:

- لا فائدة لكم من ضرب العجوز.. تعالوا غدًا وحصلوا منه إيراد الأمس واليوم.

نظر الغجري إلى العجوز قائلًا:

- كما قال هذا لا فائدة من ركلك، سنعود غدًا وإن لم نجد النقود سنقتلك أنت وهذا.

ثم أشار الغجري إلى يحيى وشرع في الرحيل.. قُلت:

- هذا هو حال السوق منذ أن دخل هؤلاء قريتنا.

صاح العجوز صاحب الحانوت وهو يبكي:

- سيأتون غدًا لقتلي.

قال يحيى للعجوز:

- أعدك بأن كل شيءٍ سيكون على ما يرام قبل أن يأتوا غدًا.

***

ملنا إلى منصة عالية مبنية في منتصف السوق، وصعدنا إليها، وشرع يحيى في نزع ما يخفي وجهه.. صاح أحد المارة على حين غرة:

- بورهام!

وقال آخر:

- ألم يمت؟!

ونبس ثالث:

- كيف يكون ذلك؟! لقد رأيت جسده يطفو على الماء، وقد امتلأ بالطعنات.

استمر الناس على هذا ما يقارب ربع الساعة، وقد بدأت أعدادهم تزداد، وأخذت الجلبة الصادرة منهم في الارتفاع، الكثير منهم يتعجب ذلك، ويسألون كيف يكون هو القائد بورهام وقد أغرقت أخبار وفاته كل هذا العالم.. قطع تلك الجلبة صوت يحيى:

- أعلم أن كثيرًا منكم لا يصدق ما يراه، ولكنها الحقيقة.

ارتفع صوت قادمًا من الجمع:

- لقد رأينا جسدك وهو يعتلي الماء!

ليضيف يحيى:

- إنها خدعة دبرها هؤلاء ليضعفوا عزائمنا.

عاد الصوت للظهور متسائلًا:

- وأين كنت كل هذا؟

يرد يحيى:

- قام هؤلاء بخطفي وتعذيبي حتى تتشتت هممكم، وتضعف إرادتكم، حاولت الهروب مرارًا ولكني لم أفلح في ذلك.

ثم أشار إلى نوح:

- إلى أن عثرت على صديقي هذا، فساعدني على الهروب من الظلمات، وبمجرد خروجي من وكرهم عدت إليكم لنكمل ما بدأناه.

ارتفع صوت آخر من الجمع:

- نحن جميعًا معك، لقد زادت الأمور سوءًا منذ رحيلك.

وصاح آخر:

- وأنا أيضًا معك.

ظهر من وسط الجمع شاب في العقد الثالث من العمر، يرتدى سترة مهندمة، ذو أنف أحمر وعينين مبتسمتين، تلحق حوله مجموعة من الفتيان:

- أنا وكل أصدقائي معك أيضًا.

ارتفعت صيحات كل مَن بالسوق تأييدًا ليحيى وسعادة لعودته، وهنا بدأ الغجر ملاحظة هذا، وامتدت أبصارهم إلى المنصة غير مُصدقين ما يرونه، خائفين من عودته، ولكنهم عزموا على التخلص منه والقضاء عليه في الحال، قبل أن يعود الناس للالتفات حوله من جديد، فحاولوا الصعود إلى المنصة، فتصدى لهم الناس، وفتكو بهم، وجمعو أسلحتهم.. وهنا اندلعت شرارة المقاومة من جديد.

***

بدأت المناوشات في الاحتدام، وأخذت المعارك بيننا وبينهم تزداد واحدة بعد الأخرى، وباشر كل سكان كوني في حمل السلاح لاستعادة الأرض وقتال الدخلاء، وانتقلت المعارك من قرية إلى أخرى، ومن مدينة لأخرى، ومن بلد إلى بلد، حتى دوي صوت الرصاص في العالم كله، فأيقن الناس أن الخلاص من الغجر أمر لا مفر منه بعد الآن، وجاءت الأخبار من كل صوب تفيد بتحقيق الانتصارات المتتالية، واستعادتنا لأرضنا المنهوبة، وبحدوث الانقسامات في جيوش الغجريين، غير المصدقين لما يرونه؛ فبعد موت بورهام ظنوا أن الناس لن يتحرك سكونها ثانية.

ودوي صوت تلك الانتصارات في كل أرجاء كوننا، وبدأ جميع سكان هذا العالم بما فيه من نساء وأطفال وعجز بمقاومة الغجر، ومطاردتهم في الشوارع والأزقة، والحرص على قتل ما تبقى من جيوشهم المهزومة، والقائد يحيى يقاتل مع الناس تارة، وتارة أخرى يجتمع بهم ليخطب فيهم، ويبث في ضلوعهم الحماسة والإقدام، وضرورة التخلص من حياة العبودية التي عاشوها، ويحرك الحرية التي سجنت في ظلماتهم.

نقصت أعداد الغجر، وشارفوا على الانتهاء، وأصبح النصر حليفنا لا محالة.. وازداد يقين الناس بالنصر عندما جاءت الأخبار بمقتل زعيم الغجر كتالي ووزرائه، فذلك الخبر زادنا قوة وإقدام وجعلنا أكثر طلبًا وحرصًا على تحقيق النصر.

وبعد مرور أكثر من شهر، استعدنا معظم أراضينا، واختفى الغجريون من أغلبية البلاد والقرى، وازداد حب الناس ليحيى ولصديقه الذي أخرجه من سجنه، وبدأت الحياة تعود كما كانت قبل الغجريين.. قال نوح لي ذات مرة بعد انتهاء إحدى المعارك التي شاركنا بها:

- لقد أصبح النصر حليفكم لا محالة.

أجبت:

- من دون خطتك لم نكن نعرف للنصر أي طريق.

ثم توجهت إلى يحيى:

ومن دونك سيدي أيضًا.

قال نوح:

- هذا صحيح.. من دونك يا يحيى، لم تكن توجد الفكرة من الأساس.

ثم ربت على كتفه وأضاف:

- حان وقت الرحيل يا صديقي.

قلت:

- ابقوا معنا بضعة أيام أخرى.

قال يحيى:

- لا جدوى من بقائنا، هزمتم يأسكم، وصحت ألسنتكم، وأصبحتم للنصر أقرب، وعادت أموركم كما كانت.

سألت في مرارة:

- ومتى الرحيل إذًا؟

أجاب نوح:

- اليوم في تمام الحادية عشرة مساءً.

سألني نوح:

- هل الجهاز الذي صنعه يونس ما زال معك؟

أجبت:

- نعم.
- نريد هذا الجهاز للعودة.
- فليكن.

***

ومع اقتراب الساعة من الحادية عشرة، كنا على ظهر العربة متجهين إلى مدخل القرية.. صاح مقل للعربة:

- أنتم مَن كنتم مع البطل بورهام في السوق؟

أجاب نوح:

- نعم.
- وأين هو الآن؟

أجبت:

- يقاتل الغجر في الشمال.

دنا نوح إلى يحيى هامسًا:

- لو لم تضع هذا الوشاح الأسود حول وجهك لتلحق حولك الكثير، مجبرينك على البقاء وعدم الرحيل.. فلتدعو لي الآن، لأن هذه الفكرة ملكي.

عند مقصدنا، طلبنا من السائق أن يتوقف، ونزلنا مسرعين إلى مكان الثغرة.. سألني نوح:

- هل عثرتم على ابن كتالي؟
- نعم.. وجدوه مقيدًا بالحبال في أحد الأزقة، ولا ندري من فعل به ذلك.
- وأين هو الآن؟
- قابع في السجن ينتظر العدالة.

أخرج نوح الأنبوب الزجاجي من حقيبته، وناولني إياه لأسكبه في الجهاز، وسرعان ما عاودت التشوهات في الظهور.. تأهب يحيى للعبور قائلًا:

- لا تعطوا الفرصة لأي شخص يفعل بكم ذلك مرة أخرى، مهما كانت قوته، ولا تنتظروا قدوم بورهام آخر يجمعكم حوله، ليكن كل شخص منكم بورهام، يلهم من حوله بالشجاعة وعدم الخوف والاستسلام مهما تكن الظروف.

أومأت برأسي مكتفيًا بالابتسام والنظر إلى يحيى، وهو يختفي داخل البوابة.. قال نوح:

- ما هي خطتكم الآن؟

أجبت:

- بعد أن نتأكد من اختفاء الغجر تمامًا، سنبدأ ببناء عالم جديد، كعالمكم، وسنرسي به قواعد وقوانين تمنح الحرية لكل الناس بلا استثناء.

ابتسم لي نوح،و شرع في اللحاق بصديقه، فأمسكت بيده قائلًا:

- شكرًا لك على مساعدتنا.

نظر نوح إلى السماء قائلًا:

- انظر إلى هذا النجم البارز في السماء، إنه هي ابنتك، لقد وعدتها مرارًا أن يظل نجمها ساطعًا إلى الأبد.

ابتسمت له وأنا ألوح بيدي مودعًا إياه:

- إلى اللقاء يا زوج ابنتي.

****

تمت

جدول المحتويات

****